دموع الشوباشي بين يدى سيبويه

د. محمد محمد داود

دمـــــوع
الشوباشي
بين يدى
سيبــويه

د. محمد محمد داود

٢٠٠٤م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

إلى سيبويه :

رمز العربية

ورائدها الفذ

مقدمة

اللغة هى الهوية.

وازدهار لغة ما دليل على تماسك أهليها، ورفعة حضارتهم. كما أن ضعف لغة ما دليل على ضعف أهليها وتراجعهم؛ فاللغة بأهليها قوة وضعفًا.

ولغتنا العربية – فى معركة الحضارة المعاصرة – تعانى مشكلات وتصادفها عقبات من أبرزها:

- تدريس العلوم الطبيعية والطبية بلغة أجنبية.
- حرمان المكتبة العربية من الأعمال الموسوعية العامة والمتخصصة، وكذلك المعجمات بمستوياتها المختلفة.
- كنوز المخطوطات العربية المشتتة بين مكتبات العالم لم تحظَ بتحقيقها ونشرها ودراستها وتقويمها.
- العربية فى دور التعليم وغياب التكامل العلمى فى

تعليم العربية، فمناهج التربية والتعليم ضد ازدهار اللغة العربية، بل هى سبب مباشر للضعف اللغوى.

- نزعة المجتمع إلى التغريب.
- سيطرة العاميات التى تضر بالفصحى.
- الجانب الأكبر من التراث الإنسانى لم يترجم إلى العربية حتى اليوم.
- لم يتم تيسير سبل تعليم العربية لغير العرب بطريقة علمية حتى اليوم.
- افتقاد رؤية لمستقبل اللغة العربية، فلا يوجد لدينا تخطيط لغوى للمستقبل.

وهذه المشكلات هى هموم اللغويين العرب، وعلى الرغم من امتلاكهم حلول هذه المشكلات إلا أن شيئًا منها لا يعرف طريقه إلى النور، وأتساءل مع الملايين العربية:

● هل لأننا ظواهر فردية لا نحسن العمل الجماعى بروح الفريق؟! ونحن فى عصر التكتلات التى تجتاح كل ماهو فردى.

● أم لأن اللغويين لا يُمكَّنُ لهم فى الإعلام والتربية والتعليم والمؤسسات التى تملك سلطة القرار ؟! فتظل جهودهم مجمدة على الأرفف وكأنهم يؤلفون لأنفسهم!

● أم أصابهم العجز عن التغيير والتطوير المنشود ؟ بسبب هموم الحياة ووطأة العيش التى جعلتهم يلهثون لتحصيل حد الكفاف من العيش ؟

● أم لهذه الأسباب مجتمعة ؟!

مهما يكن من أمر، فإن دَوِيّ المشكلة جعل المثقفين يصطرخون، وهذه صرخة يئست من حراس الضاد، فامسكت بحجر وألقت به فى وجه إمامهم الأول: سيبويه، لعلهم ينشطون، فقاموا مشدوهين من جرأة هذه الصرخة،

وأسرعوا في طلب كتاب صاحبها، يقرأون سطوره ويتأملون مباحثه ويناقشون قضاياه بين استغراب وإنكار، فالكتاب يستفزهم بعنوانه، وببعض فصوله شبهات ومطاعن، لعلها جاءت عن وهم أو سوء فهم، لكن يبقى لصاحب الصرخة فضل تحريك الهمم ولفت الانتباه.

وقد أتيح لي أن أكون طرفًا في حوار ومناقشة لصاحب هذه الصرخة بمنتدى القناة الثقافية، بصحبة أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين، فاقتربت من بنات أفكار صاحب الصرخة، ووقفت على حسن نيته، لكن وقت الحلقة ضاق عن الإحاطة بفكر صاحب الصرخة ومناقشة ما أثاره من مشكلات وقضايا؛ فرأيت أن أفرد كتابًا لاستكمال المناقشة تعميمًا للفائدة.

ولعل في هذه السطور دعمًا للوعي اللغوي الذي يقوم على حقائق العلم وإدراك الواقع إدراكًا ناضجًا بعيدًا عن التهويل أو المبالغة أو التحامل على الآخر أو التعالي وحب

الظهور، وقد جرت سنة الفكر أن الآراء يقدح بعضها بعضاً.

وأسأل الله تعالى أن يلهمني الحق والصواب، وأن يجنبني اتباع الهوى، وأن يتفضل عليَّ بالتوفيق والسداد، وأن يتقبل مني هذا الجهد اليسير خدمة لعربية القرآن.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

١/٨/٢٠٠٤م

د. محمد محمد داود

مكتبة العلماء

تليفون: ٥٦٨٥١٢٢

٠١٢/١٠٦٢٩٠٠

md@rasaeldawood.com

WWW.rasaeldawood.com

سيبويه(*)

● اسمه : عمرو بن عثمان بن قنبر، فارسى الأصل.

● كنيته : أبو بشر.

● لقبه : سيبويه.

● شيوخه : أبرزهم وأهمهم الخليل بن أحمد إمام العربية، وحماد بن سلمة البصرى، ويونس بن حبيب، وأبو الخطاب الأخفش، وغيرهم.

● نشأته :

ولد سيبويه بالبيضاء، وهى أكبر مدينة فى كورة إصطخر بفارس، ويقال: إن مولده ومسقط رأسه كان

(*) لمزيد من التفصيل حول سيبويه، والكتاب، انظر:
- معجم الأدباء، تصنيف / أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى (ت ٦٢٦هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- الكتاب (كتاب سيبويه) أبى بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ)، تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجى، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

بالأهواز. ثم هاجر أهله إلى البصرة فنشأ بها، وكانت الهجرة إلى الحواضر الإسلامية فاشية متواصلة في ذلك الزمان، وكان أقرب المَهاجِر إلى أهل فارس هي مدن العراق الثلاث، البصرة والكوفة وبغداد، فكان اختيار أسرته للبصرة يحلُّون بها، ويحيا فتاهم في أرجائها، يطلب العلم، فيبني لنفسه مجداً خالداً.

● وفاته: قيل إنه مات غمًّا بالأهواز مسقط رأسه عن نيف وأربعين عامًا.

● من أقوال العلماء فيه:

قال الجاحظ: «أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك، ففكرت في شيء أهديه إليه، فلم أجد شيئًا أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهدى إليك شيئًا ففكرت فإذا كل شيء عندك، فلم أر أشرف من هذا

الكتاب. وهذا كتاب اشتريته من ميراث الفراء. قال: والله ما أهديت إليّ شيئًا أحب إليّ منه».

وقال المازني:

«من أراد أن يعمل كتابًا كبيرًا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي».

الكتاب (كتاب سيبويه)

● هو المؤلَّف الأول المعتد به في العربية في حقل الدراسات اللغوية، وإن كان البعض يصفه بأنه كتاب في النحو، فما ذلك إلا بضرب من التسامح.

● عرف كتاب سيبويه من قديم الدهر إلى يومنا هذا باسم **الكتاب**، ومن المسلم به تاريخيًا أن سيبويه لم يسمّه بهذا الاسم ولا بغيره، وربما كان ذلك بسبب موته شابًّا، فلم تمهله الأقدار لمعاودة النظر في الكتاب واستتمامه

وتسميته.

● وللكتاب مكانة عظيمة وأهمية بالغة، قال السيرافى: وكان كتاب سيبويه لشهرته وفضله عَلَمًا عند النحويين، فكان يقال بالبصرة: قرأ فلان **الكتاب**، فيعلم أنه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، ولا يشكُّ أنه كتاب سيبويه.

ولقد سماه الناس قديمًا: قرآن النحو!

● وقد أثر الكتاب فى مدرستى الكوفة والبصرة، وكذلك فى مدرسة المغاربة ومدرسة الأندلس فى النحو.

● ومادة الكتاب تشمل القواعد الأساسية فى المستويات اللغوية الأربعة: (الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية).

وهو يلتقى بذلك مع علم اللغة الحديث، غاية ما فى

الأمر أن هذه المستويات جاءت متداخلة أحيانًا فى كتاب سيبويه.

● وللكتاب شروح كثيرة، أشهرها شرح السيرافى، كما قامت عشرات الدراسات الجامعية حول كتاب سيبويه.

نظرة
فى مقدمة الشوباشى

جاءت مقدمة الشوباشى مبشرة بآمالٍ عظيمة، فجميل أن ينشط الإنسان للغته وأن يغار عليها، وأن يتابع النشرات العلمية التى تتحدث عنها، ويتألم حين يراها تتقهقر بين اللغات الحية فى الإحصاءات العالمية.

وعظيم أن يكون الإنسان على وعى بما يدور حول أمته، وأن يحاول الإسهام فى رحلة الإصلاح والتطور والنهضة.

ومهم أن نفكّر فى حلول غير تقليدية لمشكلاتنا الثقافية والفكرية واللغوية، وبخاصة أن إسلامنا أمرنا أن نتغيًا الأفضل والأكمل والأحسن فى كل جوانب حياتنا،

كيف لا وقد قال النبى ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شىء» ؟!.

ونحن مع المؤلف فيما دعا إليه من إصلاح وتطوير لواقعنا اللغوى، ولا نختلف معه حول المقدمة فى شىء.

برج بابل

يدور هذا الفصل حول أهمية اللغة فى حياة الإنسان، وكيف بدأ التفكير البشرى حِسيًّا ثم تطوّر إلى التجريد بفضل اللغة. ويعرض للعلاقة بين اللغة والفكر، وأن اللغة وعاء للفكر، والفكر مضمون اللغة، وانتهى - فى هذه الجزئية - إلى أن التخلف الفكرى يؤدى إلى اضمحلال اللغة، **والتخلف اللغوى يعوق العقل عن التطور**، وأن اللغة هى التى تربطنا بماضينا الثقافى، وهى وسيلة لنقل خبرات المجتمع الإنسانى من جيل إلى جيل، وأن اللغة أداة للتفاهم والتواصل بين البشر، ودور اللغة فى تماسك المجتمعات، لكونها أداة توحيد وانسجام ووفاق.

ثم يعرض المؤلف لاندثار بعض اللغات وموتها باندثار حضارة أهلها، ثم يعرض لمحاولة الطبيب الهولندى فى القرن

التاسع عشر لوضع لغة عالمية جديدة هى الإسبرانتو، التى نشرها عام ١٨٨٧، ولم تنجح الفكرة.

ثم تحدث عن السياسات اللغوية على مستوى الدول، واتخاذ الدول من اللغة أداة للهيمنة السياسية والثقافية الفكرية، مثل ما صنعت فرنسا بشعوب المغرب العربى.

ثم عرض المؤلف لمكانة اللغة العربية فى نفوس أهلها ومدى اعتزازهم بها.

● **تعقيــب :**

هذا الفصل بكامله يدور حول مُسلَّمات وبدهيات عن اللغة وأهميتها ودورها، والملاحظات التى على هذا الفصل قليلة، وتتلخص فى نقض المعادلة التى وضعها بشأن اللغة والفقر اللغوى والفقر الفكرى، فالجزء الأول من المعادلة الذى يقضى بأن التخلف الفكرى يؤدى إلى اضمحلال اللغة، هذا أمر لا جدال فيه، وهى حقيقة أقرها علم اللغة الحديث.

أما الشق الثانى من المعادلة الذى يقضى بأن التخلف اللغوى يعوق العقل عن التطور، فنحن نريد أن نستوضح المقصود بالتخلف اللغوى:

فإن كان يقصد بهذا التعبير ما عليه الناس من تقصير فى تعلُّم اللغة وممارستها، فهذا حقٌّ لا مراء فيه.

وإن كان يقصد أن فى ذات اللغة عيبًا يعوق العقل عن التفكير، فهذا مخالف لحقائق علم اللغة الحديث؛ فقوة اللغة وضعفها، وتقدمها أو تخلفها - إنما هو من قوة أهليها أو ضعفهم، حسبما تقرر حقائق علم اللغة الحديث.

ثم إننا نتساءل عن نقطة أخرى فى هذا الفصل، بشأن *الانتعاش الذى أحدثه تأثير اللغة الفرنسية فى بلاد المغرب العربى إبان احتلالهم له، وذلك الانتعاش الذى يراه المؤلف فى المغرب العربى فى نهايات القرن العشرين، بسبب لغة المحتل.*

وإنى لأتساءل: أين ذلك الانتعاش؟ وهل نسينا أن الازدواج اللغوى بين لغة المحتل واللغة الأم للبلاد - كان

السبب الجوهرى للصراع الدامى على أرض الجزائر؟ وأن الاستفادة العلمية لم تكن من **اللغة الفرنسية**، ولكن كانت من **العلم والفكر الفرنسيين**.

ولم تكن الحملة الفرنسية على المغرب العربى لاحتلال الأرض ونهب الثروات فقط، وإنما كانت لفرنسة العقل والثقافة ومحو الهوية العربية، يتأكّد ذلك إذا تساءلنا بوعى الأسئلة التالية:

● لماذا حظر الاستعمار الفرنسي استعمال اللغة العربية في المجالات الرسمية حظراً مطلقاً، وفرض الفرنسية فيها؟

والجواب: الهدف هو دفع أهل البلاد إلى تعلُّم الفرنسية.

● لماذا عدم السماح للجزائريين بتأسيس مدارس ومعاهد لتعليم العربية؛ ولم يسمح فقط إلا بتحفيظ القرآن دون فهم أو تفسير، ومن يخالف يزج به في السجون ؟

● لماذا كانت الكتب المدرسية تؤلّف باللهجة العامية؟

• ثم صدور قرار عام ١٩٣٨ الذى دعم خطة محاربة اللغة العربية، الذى نصَّ على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية فى الجزائر، ولا يجوز تعليمها فى المدارس سواء أكانت حكومية أو شعبية[١]. وما يعلقها إلا العالمون !

(١) راجع: وضع اللغة العربية فى الجزائر، عبد الله بوخلخال، مقالة بالكتاب السابع والثامن عشر، مايو ١٩٩٧ – قضايا فكرية.

هل هناك لغة عالمية ؟

يدور هذا الفصل حول الإجابة عن السؤال :

هل هناك لغة عالمية ؟

ويصل المؤلف إلى أن الإنجليزية هى اللغة المهيمنة على عالمنا اليوم، حيث إنها هى اللغة الرائدة فى مجالات العلم والفن والإعلام والصناعة؛ لذا تصدَّرت لغات العالم، وأصبحت اللغة المتداولة بين الصفوة وفى المعاملات الدولية، والندوات السياسية والعلمية والثقافية الدولية . . .إلخ .

ثم يتساءل المؤلف عن سبب نجاح الإنجليزية فى الهيمنة والسيطرة بلا منازع، لتصبح لغة التعامل الدولى فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين .

وهل السبب الأوحد هو القوة الأمريكية، القوة العلمية، باختصار: قوة أهل هذه اللغة ؟

ويصل إلى النتيجة النهائية فيقول:

«ما نريد أن نستخلصه من الحديث عن لغة عالمية، هو أن سيطرة الأنجلو أمريكية لا تأتى فقط من كونها لغة الدولة المهيمنة فى عالم ما بعد الحرب الباردة، وإنما - أيضًا - لأنها لغة سهلة، طيِّعة، يتطلب تعلُّم مبادئها جهدًا أقل من أى لغة أخرى فى العالم، وبالتالى فإن من يتقنها يصل إلى المعرفة من أقصر الطرق.. على عكس العربية».

● تعقيـــب:

● **أولاً:** أن اللغة التى لها المقدمة فى العالم هى لغة أهل العلم والحضارة، وهى الإنجليزية الآن، هذه حقيقة أكدها علم اللغة الحديث، فقوة اللغة من قوة أهليها.

● ثانيًا: أن الإنجليزية لغة سهلة، فهى سهلة بسبب الجهود الضخمة التى بُذلت لتيسير سبل تعليمها ونشرها فى أرجاء المعمورة، وربطها بجوانب الحياة المختلفة، والحركة المعجمية الضخمة للإنجليزية، كل هذه الجهود أدت إلى تيسير هذه اللغة. ويكفى أن نشير هنا إلى حجم النفقات والمؤسسات والهيئات التى تقوم على تنمية ونشر بعض اللغات والحفاظ عليها كلغة أولى أو كلغة ثانية(١).

---

(١) المؤسسات التى تدعم لغاتها الوطنية فى العالم:

● اللغة الإنجليزية:

الإنجليزية لها طغيان لا يقاوم على مستوى العالم؛ فهى لغة الحضارة والإنترنيت.. .إلخ، ومن أهم المؤسسات التى تدعم اللغة الإنجليزية كلغة ثانية:

● الجامعة الأمريكية: وتقوم بدعم العامية والدعوة إلى إحيائها.

● المدارس الأمريكية: الإنجليزية لغة دراسة من الصغر، كى يفكر الدارس بالإنجليزية، ويحلم بالإنجليزية، وكان لهذا أثره الكبير فى ولاء وانتماء هذا الطالب للإنجليزية.

وتستخدم الولايات المتحدة خمس هيئات مختلفة -على الأقل- للترويج للإنجليزية، وهى: =

= ● وكالة التنمية الدولية (AID).
● وكالة الإعلان الامريكية (USIA).
● فرق السلام (Peace Groups).
● إدارة الدولة (SD).
● إدارة الدفاع (DD).

وبإقامة المجلس البريطاني British council (بميزانية سنوية حوالى ٢٠٠ مليون جنيه استرليني) أقامت بريطانيا مؤسسة فعالة للغاية لتنفيذ سياسة نشر لغتها المدعومة - بطريقة فعالة على نحو متساوٍ - ببرامج تعليم اللغة في هيئة الإذاعة البريطانية BBC المدعومة ماليًا من القطاع الحكومي. وبرامج سلسلة «الإنجليزية من خلال الإذاعة والتلفزة» تصل إلى جمهور أكبر من جمهور برامج اى لغة أخرى في العالم. [اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ترجمة د. أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة: الكويت (٢٦٣) ص ١٤٧، ١٤٨].

● المعهد البريطاني:

وله نشاط كبير في تعليم الإنجليزية، وتيسير سبل الاتصال بالثقافة الإنجليزية، من خلال الكتب والمطبوعات، والندوات، والمحاضرات، والمنح الدراسية.

● **اللغة الفرنسية:**

تلقى اللغة الفرنسية دعمًا كبيرًا، ولها مؤسسات تعمل على نشرها في مناطق واسعة من العالم، من هذه المؤسسات:

الفرانكفونية:

وهي حركة فكرية تهدف إلى دعم وجود وبقاء القيم الفرنسية في دول العالم، وبخاصة في الدول التي كانت مستعمرة فرنسيًا ثم انسحبت منها فرنسا، وذلك من خلال دعم الوجود اللغوى الفرنسي، ومدافعة التيارات اللغوية الأخرى. =

= ومصطلح الفرانكفونية يعود إلى عالم الجغرافيا الفرنسي: «أونزيم ركلو – Onesime Reclus» فقد وضعه في أواخر القرن التاسع عشر ١٨٨٠م للدلالة على الدول التي تستعمل اللغة الفرنسية، ثم صار فيما بعد دالاً على مجموع المستعمرات الفرنسية التي انسحبت منها فرنسا، وتتحدث هذه المستعمرات – كليًا أو جزئيًا – اللغة الفرنسية.

وفي عام ١٩٠٦م تم تأسيس الجمعية العالمية للكُتَّاب باللغة الفرنسية، ثم توالى تأسيس الجمعيات والاتحادات حتى عام ١٩٦٢م عندما نشرت مجلة (الفكر) الفرنسية عددًا خاصًا عن «اللغة الفرنسية لغة حية» وكان هذا بمثابة البيان الأول للفرانكفونية، ثم توالى تأسيس الجمعيات والاتحادات للدفاع عن اللغة الفرنسية.

وفي عام ١٩٧٠م تأسست الفرانكفونية بمفهومها الجديد باسم «وكالة التعاون الثقافي والفني للتبادل الثقافي مع الحكومات» وأصبح لها مؤتمرات ومشاركات وإرساليات، من خلال مؤسسات وتنظيمات لها ميزانيات لدعم أنشطتها المختلفة، ولها حضور قوي في المؤتمرات الدولية مثل: مؤتمر السكان بالقاهرة ١٩٩٥م، والمؤتمر الدولي الرابع حول المرأة والتنمية في بكين ١٩٩٥م.

وفي قمة داكار الفرانكفونية (مايو ١٩٨٩م) أعلن الرئيس ميتران أن فرنسا سوف تلغي الدين العام للبلدان الأفريقية الخمسة والثلاثين الأفقر، وهو ١٦ بليون فرنك في جملته، وفي المقابل ينتظر من هذه البلدان أن تستمر في ضمان الدور المتفوق للغة الفرنسية في الحكومة والتعليم. [اللغة والاقتصاد، ص ١٤٧].

وللمنظمة الفرانكفونية جانب إعلامي يتمثل في القناة التليفزيونية الفرنسية الخامسة الموجهة إلى الشعوب الفرانكفونية، وسائر المهتمين باللغة الفرنسية، ولدعم الوجود الفرنسي في العالم. [راجع الوكالة=

= الفرانكفونية بالإنترنيت WWW Francophonic.org.com] .

اللغة الألمانية:

نجد دعماً واضحاً لها من خلال اتجاهين:

الهيئات التي تدعم الألمانية كلغة ثانية:

١- هيئة التبادل الثقافي الألماني DAAD:

لها دورٌ ملحوظ في دعم اللغة الالمانية كلغة ثانية، من خلال تدعيم البعثات العلمية بألمانيا لغير الألمان، كما تقوم بتدعيم الابحاث العلمية في دول العالم، سواء تلك الناطقة بالألمانية أو بغيرها، ولها نشاط فعَّال في إعداد الدورات العلمية والمحاضرات المتعلقة بالحضارة الألمانية.

٢- معهد جوته الألماني:

وهو منظمة خاصة تلقى دعماً من الحكومة الالمانية، بالإضافة إلى المنح والهيئات التي تأتي من بعض الجهات.

والمعهد يقوم بتدريس اللغة الالمانية ونشرها وتدعيمها في داخل المانيا، وفي خارج ألمانيا كلغة ثانية (أجنبية) ولها نجاح ملحوظ في نشر وتدعيم وجود اللغة الالمانية والثقافة الالمانية، ومن فروع هذا المعهد « معهد جوته الالماني » بمصر.

٣- المكتب المركزي للمدارس الألمانية في الخارج:

تنفق المانيا على دعم اللغة الالمانية بالخارج حوالي ٥٠٪ من الميزانية الثقافية لوزارة الخارجية، ولا يمثل هذا المبلغ إجمالي ما ينفق، فهناك بعض الهيئات الوسيطة التي تتلقى أموالاً من جهات وأقسام أخرى. [اللغة والاقتصاد، ص ١٤٦، ١٤٧].

● **اللغة العبرية:**

استطاع اليهود في أقل من قرن بعث اللغة العبرية، وتحويلها من لغة ميتة لا تكاد تستخدم إلا في أغراض دينية، وعلى نطاق ضيق في إطار=

ثالثًا: : إن سهولة الإنجليزية مرتبطة بمستخدم اللغة، وما بذله من جهد فى تيسير وسائل تعليمها وتنميتها، ولكن ليست السهولة فى ذات اللغة، فأهل كل لغة هم الذين يجعلونها لغة سهلة أو لغة معقدة، ولو بذلت فى سبيل العربية نصف الجهود التى بذلت للرقى بالإنجليزية ونشرها، لكان للعربية شأن آخر.

إذن مسألة أن الإنجليزية سهلة والعربية صعبة تعود إلى

= الجيتو «المعزل اليهودى» إلى لغة حية لها قاموسها وأدبها الذى حقق مستوى عالميًا بفوز «يوسف عجنون» بجائزة نوبل للآداب.

وهناك هيئات تقوم على خدمة العبرية، مثل: أكاديمية اللغة العبرية «Aqademiyah la-Lashonha-Ivrit»، وتعمل إسرائيل على تطبيق سياسة لغوية ذات أهمية رمزية، وأهمية حيوية أيضا بالنسبة للدولة الحديثة، وخاصة بسبب الاستخدام الاصطلاحي الذى لا غنى عنه بالنسبة للعلم والتكنولوجيا والصناعة. [اللغة والاقتصاد، ص ١٤٠، ١٤١].

كما أن هناك مركز دراسات العبرية الذى يقوم بنشر الثقافة واللغة العبرية، وكذلك تقوم جريدة «هآرتس» بهذا الدور من خلال موقعها على شبكة الإنترنيت: «WWW.Haartz.com» وهناك موقع آخر بكل اللغات إلى جانب العبرية، عنوانه: «WWW.GooGle.Com.Ok.».

مستخدم اللغة وليس إلى اللغة ذاتها، وحين كان العرب أمة حضارية كانت العربية هي اللغة الأولى فى العالم، فالعيب فينا وليس فى فصحانا. وما يعقلها إلا العالمون!

ولعل مسألة صعوبة العربية – فى ذهن المؤلف – ناتجة من تصور أن اللغة العربية الفصحى هى النحو فقط، وهذا وهم وخطأ أضرّ باللغة العربية، فاللغة أصوات وكلمات وتراكيب ودلالات.

وأما عن تطوير الإنجليزية لقواعد الكتابة، بحيث تكتب الكلمات كما تنطق، ففى كل لغة استثناءات فى قواعد الكتابة، وثمة صعوبات وأوجه نقص كثيرة فى نظام كتابة اللغة الإنجليزية تفوق تلك الصعوبات الموجودة فى الكتابة العربية، ومنها:

١- الإتيان بالرمز الكتابى دون مقابل منطوق له، وقد يقع ذلك فى أول الكلمة أو وسطها أو نهايتها، نحو:

know - debt - comb

وقد يقع هذا النهج مرتين فى الكلمة الواحدة:

Psychology - knight.

كما قد يتكرر الرمز الكتابى فى مقابل منطوق مفرد:

Coffee - Supper.

٢- وقد يحدث العكس حيث ينطق الصوت وليس له ما يقابله، وإن كان ذلك مقصوراً على الحركات، كما فى نحو centre، فى الكتابة المسماة بالبريطانية (British)، حيث لا مقابل كتابيًا للحركة التالية للصوت (t)، وقد عالجت الكتابة الأمريكية مثل هذه الحالة فاثبتوا رمز هذه الحركة هكذا: center.

وهذه الأمثلة من القصور الكتابى فى الإنجليزية بالغة الكثرة ومنتشرة انتشاراً واسعًا بحيث يصعب حصرها أو الوقوف عليها، فى حين أن أمثلتها فى الكتابة العربية قليلة

قلة ظاهرة، إلى حد يمكن للإنسان العادى أن يحصرها ويستوعبها بكل سهولة ويسر[١].

فالعربية ليست بدعًا فى ذلك، وقد بذل اللغويون العرب جهوداً مشكورة فى إطار المجامع اللغوية وأقسام اللغة العربية بالجامعات، فى تيسير الكتابة العربية، وانتهوا إلى أن الكتابة العربية - على الرغم مما بها من استثناءات- تتمتع بمزايا لا يمكن التضحية بها[٢]. وما يعقلها إلا العالمون !

---

(١) اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، د. كمال بشر، القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩. ص١٨٨ - ١٩٠. وهناك وجوه أخرى للنقص والصعوبات فى نظام الكتابة الإنجليزية ذكرها أستاذنا الدكتور كمال بشر.

(٢) راجع: تيسير الكتابة العربية، (نصوص المذكرات والمناقشات التى دارت حول هذا الموضوع وما اتخذ فى ذلك من قرارات فى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٤).
- التقرير النهائى عن تجربة تيسير الكتابة العربية وملحقاته، إعداد: الدكتور عبد العزيز القوصى وآخرين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٧٦م.

رسالة إلى حراس الضاد

فى هذا الفصل يطالب المؤلف علماء اللغة العربية بانتفاضة تحديثية عاجلة وثورة على قواعد سيبويه، ويستشهد بأن ما يدعو إليه قد سبقه إليه كبار المفكرين أمثال رفاعة الطهطاوى، ويحذر المؤلف علماء العربية أنهم إن لم يفعلوا فإن العربية ستتحول إلى لغة لا يعرفها سوى العلماء والمتخصصين، ويتعلّمها الناس لقراءة القرآن فقط.

ويحمل المؤلف على تيار الجمود الذى لا يريد التغيير، ويراهم - فى تصوره - هم الذى يعرِّضون العربية لأكبر الأخطار لأنهم يرفضون التغيير، بل الثورة.

ويستشهد بالتطور الذى حدث للإنجليزية والفرنسية فى مقابل أنه يرى أن العربية هى اللغة الوحيدة على وجه

الأرض التى لم تتطور قواعد نحوها وصرفها منذ ألف وخمسمائة عام، وأنها اللغة الوحيدة التى أصر الناطقون بها على تحنيطها.

ويطرح الكاتب جملة من التساؤلات أمام حراس الضاد:

● *هل الخطأ فى الشباب المتعثر فى العربية، أم الذنب يقع - كذلك - على تحجر اللغة وعدم ملاءمتها لمتطلبات العصر؟*

● *وهل الحل فى فرض اللغة التقليدية دون تجديد، لأن أى مساس بها عدوان على الدين والمقدسات؟*

● *وهل آن الأوان لتطويع وتطوير اللغة لتناسب العصر؟*

ويحمل المؤلف مهاجماً هذا التيار الذى وصفه بالجمود والتحجر.

● **التعقيب:**

● **التعقيب :**

هذا الفصل أشبه بمظاهرة سياسية ضد « حراس الضاد » : علماء العربية، تعلو فيها هتافات الثورة والانتفاضة، ولا للجمود، لا للتحجر، لا لسيبويه وأتباعه!

وهذا كلام فضفاض من الممكن أن يكون مقالة حماسية فى صحيفة، لكنه يفتقر إلى العمق والدقة والتحديد والمنهجية العلمية.

وكان المنتظر من المؤلف - ما دام ينادى بالإصلاح - ألاّ يحمل مسبقًا على من سيخالفونه الرأى، وما دام الأمر معروضًا للمناقشة فالآراء يقدح بعضها بعضًا، فليفسح صدره وعقله للرأى الآخر، لعل فيه تنبيهًا أو إضافةً فى موضوع الإصلاح، وبخاصة أن هذه الرؤية رؤية شخصية تحتاج إلى التقويم، وإذا كان المؤلف يعترف بأنه غير متخصص، وأن رؤيته هى رؤية مثقف محب للغته، فمن اللائق بمثله ألا يتحامل على علماء اللغة الذين سيخالفون رأيه.

وإن كان قد تحامل عليهم مسبقًا بتهم سابقة التجهيز لديه : الجمود، التحجر، حراس الماضى، التخلف، سوء الفهم، عدم الوعى . . . إلخ، فإنه – بذلك – يثبت لنا أنه جزء من هذا (**الداء العربى**)، وأنه يعيب على الآخر ما هو واقع فيه، وكان الأولى به أن يتلطَّف، وأن يكون موضوعيًا يشغل نفسه بالحجة والدليل بدلاً من التُّهم سابقة التجهيز.

أمر آخر: أن الأفكار الإصلاحية تحتاج إلى رؤية واضحة، وخطوات منهجية لإنجاز الطموحات الإصلاحية، لكن المؤلف استبحر فى وصف المشكلة والإجابة عن السؤال: ماذا يحدث؟ لكنه غاب تمامًا وعجز عن أن يتقدم خطوة فى الإجابة عن: كيف العلاج؟ وما خطوات الإصلاح ؟

إن وصف المشكلة يعرفه كل الناس؛ لأنهم يعيشون المشكلة، أما الأفكار الإصلاحية فإنما هى من شأن الصفوة وأهل الذكر فى كل مجال، وأود أن أهمس فى أذن صاحبنا بأننا – معه – لا نقبل **الجمود**، وأيضًا لا نقبل **الانهيار**.

إن الإصلاح ينبغى أن يكون ثورة على السلبيات فى حياتنا بما فى ذلك السلبيات اللغوية، وألا تكون ثورة هوجاء أو اندفاعًا متهورًا، وبخاصة أن هموم الإصلاح يحملها رموز من علماء العربية فى المجامع اللغوية والجامعات العربية، لكن المشكلة يا صاحبى أن اللغويين ليس بيدهم سلطة القرار ولا يمكَّنون فى وزارة التربية والتعليم والإعلام . . .إلخ، وآراؤهم الإصلاحية ليست فى موقع التنفيذ .

وليتك تسهم معنا فى التمكين للمشاريع الإصلاحية والآراء الإصلاحية لعلماء اللغة سواء فى مجال المعجمات أو إعداد معلم اللغة العربية أو فى مجال الإعلام . . .إلخ، فإن فعلت أصبت وأصبنا واستطعنا أن نملأ الحلقة المفقودة فى طريق النهوض والإصلاح .

وأما عن النماذج التى تعد قدوة طيبة فى مجال التطوير، وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوى، فقد حدَّثوا وطوَّروا فى الأساليب والوسائل لإدراكهم أن المشكلة ليست فى قواعد

العربية، ولكنها استعمالية وتعليمية وخير شاهد على ذلك كتاب الطهطاوى : «التحفة المكتبية»، وجاءت بعده جهود فى التيسير، لكن الحلقة المفقودة يا صاحبى – كما أخبرتك – فى تفعيل المشاريع والآراء الإصلاحية.

ثم انتبه يا صاحبى، إن شئت التحديث الحقيقى فعليك بتحديث العقول والفكر ووسائل التعليم.

حينئذ ستتحدث اللغة، ألم أقل يا صاحبى مراراً وسوف أكررها لك فى كل مناسبة: إن العيب فينا وما لفصحانا عيب سوانا. وما يعقلها إلا العالمون !

هل العربية لغة مقدسة ؟

يطرح المؤلف فى هذا الفصل قضية قداسة اللغة العربية، من خلال المحاور التالية :

- *هل العربية لغة مقدسة؟*
- *هل العربية أفضل اللغات ؟*
- *هل العربية لغة توقيفية أم اصطلاحية؟*
- *الربط بين العربية والدين.*
- *هل من الضرورى أن يجيد كل مسلم العربية؟*
- *هل المساس بالعربية مساس بالدين والقرآن؟*

- **التعقيب :**

هذه القضايا التى أثارها المؤلف فرغ منها علم اللغة الحديث، وأصبحت الآن تدرس فى المعاهد والجامعات، لكن لا مانع من توضيح الحقائق المتصلة بهذه القضايا.

● أما عن العربية، وهل هى لغة مقدسة أم لا؟

فالعربية لغة مقدسة فى القرآن، لأنه كلام الله عز وجل، الذى تعهد الله بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر/ ٩.

أما خارج القرآن فالعربية شأنها شأن كل اللغات، تسمو إلى القمة على لسان من يحسنها، وقد تهبط على لسان من لا يحسنها، ولا خلاف بين العلماء فى هذا، وإثارة هذه القضية إنما هو تحصيل حاصل، فليست هنالك مشكلة إلا فى ذهن المؤلف.

● وأما عن سؤاله: هل العربية أفضل اللغات؟

فقد جرت عادة أهل كل لغة أن يمجدوا لغتهم، ويروا فيها أنها أفضل اللغات، وليس أهل العربية بدعًا فى ذلك، لكن فى إطار علم اللغة الحديث، وبعد أن صارت اللغة علمًا له مناهجه ونظرياته، وأصبحت اللغة تخضع للدراسة

العلمية، فلم يعد لهذه الإشكالية وجود عند العرب ولا عند غيرهم؛ إذ إن من حقائق علم اللغة الحديث أنه **لا توجد لغة هي أفضل اللغات**، وإنما الأفضلية تأتى من أهل اللغة، حين يكونون أهل العلم وأهل الحضارة؛ فتكون المقدمة للغتهم.

فهذه أيضًا إشكالية حسمها علم اللغة الحديث، وإثارتها مضيعة للوقت، ولا طائل من ورائها.

● أمَّا عن التساؤل : هل العربية لغة توقيفية أم اصطلاحية؟ فهذه قضية حسمها ابن جنى من القدماء، كما حسمها علم اللغة الحديث؛ لأن اللغة **اصطلاح**.

● أما قضية الربط بين العربية وبين الدين والقرآن، فهذا واقع موجود، ولا يمكن فصل العربية عن القرآن، والربط الموجود فى الواقع اللغوى ربط إيجابى يدفعنا إلى حب العربية، والحرص على تعلمها، والاعتزاز بها، وكلها دوافع

لو أحسن استخدامها وتوظيفها فإنها ستكون دعمًا وعونًا في تطوير العربية لمواكبة العصر.

وسوف أعرض في نهاية هذا التعقيب خلاصة مركزة عن القرآن والعربية.

● وأما عن سؤاله: هل من الضرورى أن يجيد كل مسلم العربية ؟!

فالإجابة أن هنالك قدراً يسيراً ينبغى على المسلم تعلمه من العربية، وهو القدر الذى يمكّنه من النطق بالشهادتين وأداء الصلاة، وهذا قدر يسير جداً (الجزء الذى يتعلق بالعبادات)، أما بعد ذلك فكلٌ على قدر رغبته واستطاعته، يعنى أن المسلم لا يشترط لإسلامه تعلم العربية.

● وأمّا عن سؤاله الأخير فى هذا الفصل: هل المساس بالعربية مساس بالدين والقرآن؟

نريد أن نستوضح من المؤلف معنى المساس.. فإن كان يعنى به التيسير والتسهيل دون العدوان على القواعد الراسخة المستقرة للعربية فلا شىء فى هذا، بل القرآن نفسه صنع بالعربية شيئًا عظيمًا، حيث هذَّبها واصطفى منها أيسر الألفاظ والكلمات، فلا تجد فى القرآن وزنًا من الأوزان الثقيلة؛ كما يظهر فيما بعد.

بل إن القرآن الكريم أعطى للألفاظ العربية التى استخدمها شهادة خلود أبدى، كما يظهر من البحث العلمى الذى قام به عالمان فى تخصصين مختلفين: أحدهما لغوى، هو الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، والثانى متخصص فى هندسة الكمبيوتر هو الدكتور على حلمى موسى، عن جذور القرآن مقارنة مع معجم موسوعى هو تاج العروس، وسوف أعرضها فى نهاية هذا الفصل.

المهم أننا نخلص إلى أن التدخل العلمى المنهجى للتنمية اللغوية وتنمية المهارة اللغوية وتيسير تعليم اللغة،

واصطفاء الأيسر منها لهذا العصر، لم يقل أحد بمنعه ولا بتحريمه، لكن دعاوى الهدم والإفساد للنَّيْل من العربية بحسن نية مع سوء الفهم، أو بسوء نية، من الطبيعى أن تواجه بالرفض، وأن تستنهض همم الغيورين على العربية للدفاع عنها، وهكذا يصنع العقلاء من أهل كل لغة.

القرآن الكريم واللغة العربية

نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين، فكان للغة العربية مزية لا تتأتى لغيرها من اللغات، وكما أثر القرآن الكريم فى الأمة العربية، فى أخلاقها وعقيدتها وشتى نواحى حياتها، فقد أثر أيضًا فى اللغة العربية تأثيرًا بالغًا يمكن إجماله فى المحاور التالية:

١- حفظ اللغة العربية:

فالمتأمل للتاريخ يرى بوضوح لغات كثيرة قد اندثرت بموت أهلها، أو ضعفت بضعفهم؛ فأين اللغة الفينيقية (لغة أهل لبنان قديمًا)؟ وأين اللغة الهيروغليفية (المصرية القديمة)، واللغة الآشورية؟! ... إلخ.

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم جعلها محفوظة

بحفظه باقية ببقائه، وسبحان الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر/٩.

والذى يدقق النظر فى العربية المعاصرة يجد الكثير من ألفاظها فارق أمه، وظلت تلك الأم الفصحى حية مقصورة على الاستخدام الدينى المرتبط بالقرآن الكريم(١) والسنة النبوية المطهرة.

٢- استقرار اللغة العربية:

رغم أن التطور سنة جارية فى كل اللغات، وأكثر مظاهر هذا التطور يكون فى الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها اللغوية (الصوتية - الصرفية- النحوية- الدلالية)، وما تطور منها كان فى إطار المعانى الأصلية وعلى صلة بها.

---

(١) راجع: د. محمد محمد داود، الدلالة والكلام، فصل: ألفاظ الكلام والاستخدام الدينى.

والمحافظة على الأصل الدلالى للفظ مع تطور الزمن، له فائدة لا يُستهان بها، فتواصل الفهم بين الأجيال للنصوص القديمة وتراث الأمة أمر من الأهمية بمكان، ويزداد إدراكنا لأهمية الاستقرار اللغوى الذى تتميز به العربية إذا ما تأملنا التغير السريع الذى يلاحق اللغة الإنجليزية (لغة الحضارة المعاصرة)؛ فنصوص الإنجليزية القديمة التى مر عليها قرابة ثلاثة قرون أصبحت عصية على الفهم بالنسبة للإنجليزى المعاصر. ولعل هذا التغير السريع هو الذى دفع علماء هذه اللغة إلى إعادة صياغة النصوص الأدبية المهمة عندهم؛ مثل نصوص شكسبير بإنجليزية حديثة Modern English يفهمها المعاصرون، بدلاً من الإنجليزية القديمة Old English.

فى حين أن العربى المعاصر يقرأ آيات القرآن الكريم فلا يحس معها بغرابة، ويكفى النظر إلى هذه الآيات:

﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ *

الَّذين يُؤْمنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ * وَالَّذين يُؤْمنُونَ بمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة/ ١ : ٥ .

وقوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ الإخلاص .

ومن الحديث النبوى الشريف قول النبى ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »(١).

ورغم مرور أربعة عشر قرنًا، لا يكاد الإنسان يجد صعوبة فى فهم هذه النصوص ولا تصادفه غرابة فى الألفاظ، وما قد يصادفنا من ألفاظ صعبة فإن أيسر المعاجم يمكن أن يبدد هذه الصعوبة.

وهكذا الشأن مع باقى المستويات اللغوية (الصوتية، والصرفية، والنحوية)، وهذه مَزِيَّة عظيمة: أن تكون الأمة موصولة بتراثها الزاخر تفيد منه وتنفع به.

وتأمل مَزِيَّة استقرار اللغة العربية، التى تفردت بها عن سائر اللغات التى تغيرت وتبدلت تغيرًا وتبدلاً جعل من اللغة الواحدة لغات كثيرة متباينة، يؤدى بنا إلى التساؤل التالى:

---

(١) البخارى ١ /٧، مسلم (١٩٠٧)، أبو داود (٢٢٠١)، الترمذى (١٦٤٧)، النسائى فى: الكبرى (٧٨)، ابن ماجة (٤٢٢٧).

ما السبب وراء هذه المَزِيَّة ؟

هل يمكن إرجاع هذه المَزِيَّة إلى أن اللغة العربية كانت لغة عالمية، فيها كل ما تفتقر إليه الأمم فى كل الأزمنة والأمكنة من ألفاظ ومعانٍ وأخيلة، بحيث يجد الناس فيها ما يفتقرون إليه، لذلك هم يحرصون عليها؟! وهذا بعيد. فما كانت اللغة العربية ولا غيرها كذلك[1].

أم أن مزية استقرار اللغة العربية ترجع إلى أهلها ومكانتهم الاجتماعية والسياسية والعلمية؟! والواقع يكذب ذلك؛ فقد كان أهل العربية فى موضع متأخر الشأن بجوار حضارتين عظيمتين هما الفرس والروم.

وهكذا ينتهى بنا التأمل إلى أن الباحث لا يجد سببًا مقنعًا لهذه المزية سوى أنها أثر من آثار القرآن الكريم.

---

(١) أحمد حسن الباقورى: أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية، ص ١٦.

٣- توحيد لهجات العربية :

بسبب انعزال القبائل عن بعضها، وضعف وسائل الاتصال بينها، بالإضافة إلى العلل الخِلقية المتصلة بالعملية اللغوية من سوء السمع وسوء الأداء؛ كان للعرب لهجات كثيرة متباينة؛ منها ما كان لأهل الحضر، ومنها ما كان لأهل البدو وما ببيئتهم من خشونة وجفاف، ومن الشواهد لتباين اللهجات الأمثلة التالية :

(أ) اختلاف هيئة النطق للكلمة الواحدة :

وأوضح مثال لذلك : ظاهرة الإمالة، وأشهر أمثلتها : « الضحى »، « سجى »، « قلى »، « دعا »، بإمالة الفتحة الأخيرة إلى كسرة، والألف التى بعدها إلى ياء فى الأمثلة السابقة، وللإمالة ألوان متنوعة يرجع إليها فى كتب القراءات واللغة .

(ب) اختلاف معاني الكلمات:

روى أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى النبي ﷺ وقد وقعت من يده السكين، فقال: «ناولني السكين». فالتفت يمنة ويَسرة ولم يفهم مراده، فكرر له القول وأشار إليها، فقال: آلمدية تريد؟ قال: «نعم». قال: أوَ تُسَمَّى عندكم سكينًا؟! ثم قال: والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ(١).

فهذا شاهد على تعدد الدوالّ والمدلول واحد، فجاء القرآن الكريم يصطفي من لغة العرب ولهجاتها أفضلها، ليقدم للعرب لغة واحدة فصيحة ولهجة واحدة عذبة، ولا يستعصى على أحد فهمها.

---

(١) مسند أحمد، ٢/ ٧١.

(ج) اختلاف تركيب الكلمات:

تحفل كتب اللغة بشواهد على تعدد أشكال الصياغة التركيبية للكلمات، فقضاعة مثلاً كانت تقلب الياء جيمًا إذا كانت ياء مشددة أو جاءت بعد العين، وهو ما أطلق عليه اللغويون: «عجعجة قضاعة»، ومن ذلك قول شاعرهم:

خالى عويفٌ وأبو عَلِجٌ   المطعمان اللحم بالعَشِجُ(١)

يريد: أبو على، بدلاً من (أبو علج)، وبالعشى بدلاً من (بالعشج).

وهناك أيضًا «الشنشنة» فى لغة اليمن؛ يجعلون الكاف شينًا مطلقًا؛ فبدلاً من أن يقول الرجل: لبَّيك،

(١) البيت من الرجز، وهو في: الكتاب ٢ /٢٨٨ بلا نسبة، وشرح المفصل ٩ /٧٤، ١٠ /٥٠٠، ونسبه العينى ٤ /٥٨٥، والشيخ خالد الأزهرى فى التصريح على التوضيح ٢ /٣٦٧ - إلى رجل من أهل البادية.

(١) البخارى (١٩٤٦) واللفظ له، ومسلم (١١١٥) بلفظ مختلف.

يقول: لبَّيش، و «العنعنة» في لغة تميم وقيس؛ يجعلون الهمزة المبدوء بها عينًا يقولون: عِذَنْ أكرمك، بدلاً من: إذن أكرمك، و «الفحفحة» في لغة هذيل؛ يقولون: علت العياة لكل عَىٍّ، يريدون: حلت الحياة لكل حي، وبلهجتهم قرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «عتى عين» فأرسل إليه سيدنا عمر رضي الله عنه: إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فأقرئ الناس بلغة قريش.

وهناك طمطمانية حمير؛ حيث كانت تنطق «ام» بدلاً من «أل» للتعريف في صدر الكلمة. ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «ليس من امبر امصيام في امسفر»(١) والمراد: ليس من البر الصيام في السفر، وغير ذلك يرجع إليه في كتب اللهجات.

ولقد أدى اختلاف هذه اللهجات وتباعدها إلى صعوبة الفهم بين القبائل، ويشهد لذلك قول عليّ رضي الله عنه لرسول

(١) فيض القدير على الجامع الصغير: ١/٢٣٥. صححه ابو الفضل بن

الله ﷺ، وقد سمعه يخاطب بنى نهد فيمن وفد عليه من قبائل العرب عام الوفود: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره، فقال له النبى ﷺ: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»[1].

(٤) إثراء وتنمية اللغة العربية:

لقد أضاف القرآن الكريم نموذجًا للتعبير بالعربية لم تعرفه العربية من قبل، نموذجًا له الخلود والبقاء لا تمسه يد التغيير والتحريف.

لقد كانت العربية قبل نزول القرآن تُصَنَّف إلى شعر ونثر، فلما نزل القرآن صارت نماذج التعبير اللغوى فى العربية ثلاثة: قرآنًا، وشعرًا، ونثرًا.

ولا ينبغى أن يصنف القرآن تحت عنوان النثر؛ لأن

---

(١) فيض القدير على الجامع الصغير: ١/ ٢٣٥. صححه ابو الفضل بن ناصر، وقال السخاوى: ضعيف ولكن معناه صحيح [المقاصد الحسنة: ص ٢٩].

القرآن ليس بنثر، ولا شعر، إنه كلام رب العالمين.

كما استحدث القرآن الكريم أسماء جديدة، من ذلك ما يعرف بـ (الألفاظ الإسلامية)[1] التي جاءت تعبيراً عن المعاني الإيمانية الجديدة، التي لم يكن للعرب معرفة بها؛ من ذلك:

- **الإيمان**: كان بمعنى التصديق مطلقًا، ثم صار له المعنى الشرعي الذي حدده رسول الله ﷺ في الحديث: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

- **الكفر**: كان بمعنى الستر مطلقًا، ثم صار له المعنى الشرعي المعروف، ومنه تعريف حجة الإسلام الغزالي بأنه: تكذيب الرسول ﷺ في شيء مما جاء به[3].

---

(١) راجع في هذا المعنى: د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ: ص١٧.
(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان ١ / ٣٧.
(٣) الغزالي: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: ص ١٣٤.

- **الصلاة**: كانت بمعنى الدعاء مطلقًا، ثم صار لها المعنى الشرعى المعروف، من أفعال محددة وأقوال مخصوصة حددها الشارع.

- **الزكاة**: كانت بمعنى النماء مطلقًا، ثم أصبح لها المعنى الشرعى المعروف، وهو: القدر الواجب إخراجه لمستحقِّيه فى المال الذى بلغ نصابًا معينًا، بشروط مخصوصة(١).

- **الحج**: كانت بمعنى القصد مطلقًا، ثم صار له المعنى الشرعى المعروف، وهو: القصد إلى بيت الله الحرام؛ لأداء أفعال مخصوصة نص عليها القرآن الكريم وبينتها السنة المطهرة، كالإحرام والطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة، ونحو ذلك.

- **المغفرة**: كانت بمعنى: الستر مطلقًا، وأصبحت بمعنى: الصفح والعفو.

---

(١) د. محمد بكر إسماعيل: الفقه الواضح: ١/٤٦٣، ٥٨٣.

كذلك الألفاظ الاصطلاحية التي نشأت في رحاب العلوم الشرعية المرتبطة بالقرآن الكريم؛ مثل: التوحيد، الفقه، أصول الفقه، التفسير، النحو، الصرف ..إلخ. ويوضح الإمام السيوطي في «الإتقان» أن هناك أكثر من ستين علمًا من علوم العربية نشأت في رحاب القرآن الكريم؛ للمحافظة عليه من اللحن من جانب، ومن جانب آخر لمحاولة فهمه والوقوف على أسرار معانيه.

لقد كان القرآن - بحق - السبب المباشر والرئيسي وراء نشأة علوم العربية، وكان لكل علم من هذه العلوم مصطلحاته الخاصة به.

ومن جوانب إثراء العربية :

أ- الرقى بدلالات كثير من الألفاظ(١)**؛ مثل :**

- **الرســول** : كانت تطلق على شخص يحمل رسالة من إنسان إلى إنسان آخر، ثم ارتقت دلالتها فى الإسلام، وأصبحت تطلق على الإنسان الذى يكلفه الله برسالة إلى البشر، مثل رسل الله : إبراهيم، وموسى، وعيسى، وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم.

- **الكرسى** : ارتقت دلالته فى رحاب القرآن الكريم من خلال دلالتــه فى الآية الكريمة: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ البقرة/ ٢٥٥.

ب- إضافة أغراض جديدة للتعبير :

من أهم هذه الأغراض الدعوة إلى المُثُل العليا والأخلاق الحميدة، والقصد فى الغنى والفقر وعدم التهافت فى طلب

---

(١) راجع: د. إبراهيم أنيس، دلالات الألفاظ، ص ٩٠.

الدنيا، والإقبال على الآخرة والرغبة فيها، ونحو ذلك من المعانى الإيمانية.

(٥) تهذيب اللغة العربية:

أ- فقد نحّى القرآن الكريم عن اللغة التقعر فى الكلام، والغريب، والألفاظ الحوشية الثقيلة على السمع.

وإن من يتأمل النثر أو الشعر الجاهلى يرى كثيراً من الكلمات الحوشية، من ذلك: «جحيش»، «مستشرزات»، «جحلنجع»، «البخصات»، «الملطاط»، «الهمخع»، «افرنقعوا» وغير ذلك كثير.

من ذلك أيضًا ما رواه القالى فى «أماليه» لأبى محلم الشيبانى من كتاب له إلى بعض الحذّائين فى نعل له، قال هذا المتقعر:

«دِنْها، فإذا همَّت تأتدِن، فلا تُخلِّها تُمَرْخِد، وقبل أن تَقْفَعِلَّ، فإذا ائتدنت فامسحها بخرقة غير وكيَّة، ولا

جَشِيَّة، ثم امْعسْها مَعْسًا رقيقًا، ثم سنَّ شفْرَتَكَ وأَمْهِها، فإذا رأيت عليها مثل الهَبْرَة فسن رأس الإزميل . .إلخ »[1].

ب- أيضًا نحَّى القرآن الكريم كثيرًا من الألفاظ التى تعبر عن معانٍ لا يُقرُّها الإسلام، من ذلك :

١- **المرباع**: وهو ربع الغنيمة الذى كان يأخذه الرئيس فى الجاهلية .

٢- **النشيطة**: وهى ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم، أو ما يغنمه الغزاة فى الطريق قبل بلوغ الموضع المقصود .

٣- **المكس**: دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى أسواق الجاهلية .

٤- **قولهم للملوك**: « أبيت اللعن » .

ومثل ذلك كثير، يرجع إليه فى بطون كتب التراث .

---

(١) احمد حسن الباقورى: اثر القرآن الكريم فى اللغة العربية، ص ٦٢ .

(٦) سعة انتشار اللغة العربية :

بنزول القرآن ودخول الناس فى دين الله أفواجًا من شتى بقاع الأرض؛ اتجه المسلمون من غير العرب إلى تعلم العربية؛ رغبة فى أداء العبادات والشعائر الدينية بها وقراءة القرآن بالعربية؛ لأن قراءة القرآن الكريم تعبُّد لله تعالى؛ لذا فقد انتشرت اللغة العربية انتشاراً ما كان ليتحقق لها بدون القرآن الكريم.

(٧) القرآن مفجِّر علوم العربية :

من أجل خدمة القرآن الكريم، ومحاولة تيسير فهمه ونطقه على المسلمين الأعاجم، ولصيانته من اللحن والتحريف؛ قامت جهود فريدة لخدمة هذا الكتاب، فنشأت علوم لخدمة القرآن بصورة مباشرة، هى[١]: علوم

---

(١) ذكر السيوطى فى كتابه « التحبير فى علم التفسير » مائة واثنين من الأنواع، وجعلها ثمانين نوعا على سبيل الإدماج، فى « الإتقان »، وذكر الزركشى فى كتابه « البرهان » سبعة وأربعين نوعا.

القرآن، لدراسة كل ما يتصل بالقرآن من مكيٍّ ومدني، وأسباب نزول، وأول ما نزل وآخر ما نزل والقراءات القرآنية.. ونحو ذلك.

يضاف إلى هذا قيام علوم[1] استُخدِمت كأدوات لفهم هذا الكتاب، مثل علوم النحو والصرف والبلاغة.. ونحو ذلك.

وكما كان للمفسرين دورٌ بارزٌ في تفسير آيات القرآن الكريم؛ فقد شارك معهم اللغويون بدور مميز؛ حيث تناولوا لغات القرآن الكريم، من ذلك: «لغات القرآن» للأصمعي (ت٢١٣هـ)، «لغات القرآن» للفراء (ت٢٠٧هـ)، كما تناولوا غريب القرآن الكريم، من ذلك: «غريب القرآن الكريم» لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ).

وكان للنحويين أيضًا مشاركة فعالة على نحو ما نجد عند الأخفش والكسائي والفراء في مؤلفاتهم تحت عنوان: «معاني القرآن».

---

(١) راجع: ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٠٥.

الجذور العربية
بين المعاجم والقرآن الكريم

فى السبعينيات تم عمل إحصاء للغة العربية بالكمبيوتر(١) بشكل كامل، طبقًا لمعطيات معجم ضخم هو معجم المعاجم (تاج العروس)، وأظهرت الدراسة أن مادة اللغة العربية من ناحية الجذور فى حدود ١١٥٠٠ فقط، بكل ما أتت اللغة خلال الاثنى عشر قرنًا الماضية. وبمقارنة جذور القرآن بجذور العربية وجد أن مجموع جذور القرآن لا يزيد على ١٥٪ من جذور العربية، وأن جذور القرآن هى المادة المستعملة فى اللغة العربية من أول الإسلام حتى الآن، وأن الـ

---

(١) دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر؛ د.على حلمى موسى، د. عبد الصبور شاهين، مطبوعات جامعة الكويت رقم ٣٢، ١٩٧٣.

الآن، وأن الـ ٨٥ ٪ من لغة الجاهلية هذه كلها أصبحت فى مادة المعاجم، أما جذور القرآن الكريم فهى التى يجرى بها فكر هذه الأمة منذ نطقوا بعد رسول الله محمد ﷺ وبعد نزول القرآن إلى أيامنا هذه، وبحصر مفردات أى جريدة، أى بحث، أى مقال، أى مادة مكتوبة؛ فإنها لا تخرج عن مادة القرآن إلا بمقدار ٢٪ فقط، وهذا يعنى أن المادة الشائعة المهيمنة فى الكتابات والأحاديث العربية هى مادة القرآن، وتلتقى هذه الملاحظة مع ملاحظة ابن فارس فى كتابه «الصاحبى» التى تقول: إن القرآن فرض على الناس بيانًا خاصًّا، فهم يقولون فى الشيء إذا وصفوه بالطول: طويل، ولا يقولون: أشق ولا أمق، وهما لا يردان فى استعمال الناس[١].

إذن فقد هيمن القرآن على هذه اللغة وثبَّت مادتها؛ لأن مادة القرآن نحفظها جيلاً بعد جيل، ونرددها بطريقة

(١) الصاحبى فى فقه اللغة، ابن فارس، تحـ مصطفى الشربينى: ص٩٨.

واحدة وبأحكام للإتقان وللأداء واحدة، وهذا هو السر في استمرار اللغة عبر خمسة عشر قرنًا حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنها لغة القرآن، ولا نستطيع أن نقول إن فيها ملامح من جاهلية ما قبل القرآن. فهذا كله سبق إلى قُرافة المعاجم موجود ومحفوظ، أما كلمات القرآن فهي الكلمات التي انطبعت بها الألسنة فلانت بالاستعمال، ولذلك يعد القرآن حافظًا لكل اللغة التي نستخدمها في عربيتنا. وما يعقلها إلا العالمون!

المسيحيون والعربية

فى هذا الفصل يفتعل المؤلف مشكلة لا وجود لها فى الواقع، وهى أن المسيحيين لا علاقة لهم بالعربية، وأنهم ممنوعون من تدريس اللغة العربية، بحجة أن معلِّم العربية يقوم – إلى جانب ذلك – بتدريس الدين الإسلامى، ثم يسوق المؤلف شواهد من التاريخ العربى على جهود المسيحيين فى اللغة العربية والتراث العربى.

وهذه أيضًا قضية مفتعلة، فالواقع والتاريخ يشهدان بدور الإخوة المسيحيين فى اللغة العربية والتراث العربى، ومن أشهر الأمثلة على ذلك ترجمات حنين بن إسحاق للفلسفة والعلوم الإغريقية، وثمة مناظرة مشهورة بين حنين بن إسحاق والعالم اللغوى أبى سعيد السيرافى حول العلاقة بين النحو والمنطق.

وكثير من محقِّقى التراث العربى الإسلامى ذاته كانوا

مسيحيين، ومن هؤلاء : الأب أنستاس مارى الكرملى، والأب چورچ قنواتى، وإيليا حاوى، والأب يوحنا قمير، وأنطون الجميل، ومنهم أعضاء بارزون فى مجمع اللغة العربية.

أما عن دعوى منع المسيحيين من تدريس العربية فى مصر، فالواقع يكذِّبها، وعندنا فى قسم اللغة العربية بكلية التربية جامعة قناة السويس معيدة مسيحية.

ومن المسيحيين من دافع عن القرآن الكريم، وردَّ على افتراءات الملاحدة ضد هذا الكتاب العظيم، ونذكر من هؤلاء: شبلى شميل الذى ردَّ على اللورد كرومر حين هاجم القرآن وادَّعى أنه نصٌّ عادىٌّ يخلو من البلاغة والجمال، فرد عليه شبلى شمبل ردًّا مفحماً.

ولن أستفيض فى ذكر أعلام المسيحيين فى مجال العربية وعلومها وآدابها، فمن منا يستطيع أن ينكر جهود

چورچى زيدان صاحب تاريخ آداب العرب، أو لويس عوض المفكر واللغوى البارع، أو خليل مطران شاعر القطرين، وجبران خليل جبران، وإيليا أبو ماضى، والأخطل الصغير، وغيرهم من المبدعين والباحثين والمؤرخين الذين قدموا جهوداً مخلصة نحو تراثنا العربى الخالد، الذى أسهم فيه المسلمون والمسيحيون جنبًا إلى جنب، ولم يفرق بين إبداع مسلم وإبداع مسيحى.

وقد أحس المؤلف بالخلل والاضطراب الذى وقع فيه، فعاد إلى صوابه ليظهر دور المسيحيين فى التراث العربى والحضارة العربية، سواء فى القديم أو فى الحديث. وحسبنا ما ذكره المؤلف نفسه من أعلام دليلاً على وحدة الأمة فى ظل الحضارة الإسلامية التى هيأت مناخًا مناسبًا للإبداع الإنسانى، شارك فيه المسلم والمسيحى وغيرهما من أصحاب الملل الأخرى، فى إطار من سماحة الإسلام وحضارته الإنسانية. وما يعقلها إلا العالمون !

المتنبى يخاف من الإعراب

يطرح الكاتب فى هذا الفصل سؤالاً :

لماذا هجر العرب الحديث باللغة العربية، على الرغم من عشقهم لها وتمسكهم بها؟

ويضيف الكاتب أنه ***لا يوجد عربى واحد فى المشرق أو فى المغرب يتعامل بالفصحى بتلقائية، ومن يتحدث بالفصحى يتكلَّف ما ليس فى طبيعته.***

والإجابة المنطقية التى يرتضيها الشوباشى ويؤكد أنها الوحيدة هى : *أن العربية من الصعوبة والتعقيد بحيث جعلت العرب يعرضون عنها.*

ويعود ليؤكد ويقول:

الإجابة المنطقية الواحدة - مهما كانت قاسية على النفس - هى أن الفصحى لا تلائم مقتضيات التفاهم ونقل

المعلومات وتفسير حقائق العالم الذى يعيش فيه العرب، سواء فى مصر او السعودية او سوريا أو الجزائر او فى اى بلد عربى آخر، وظهرت اللهجات كبديل تلقائى على لسان الشعوب العربية .

ثم أخذ يدلّل على ذلك بأن النسبة القادرة على قراءة الشعر العربى وفهم التراث لن تزيد بحال من الأحوال عن ١٪ من أبناء الشعوب العربية فى أحسن التقديرات، ثم يستكثر صاحبنا هذه النسبة فيخفضها إلى نصف بالمائة أو أقل من ذلك، وفى أفضل الأحوال ترتفع هذه النسبة إلى ٢-٣٪ على أكثر تقدير فى عدد ضئيل جداً من الدول التى يحصل أبناؤها على قسط عال من التعليم! ثم يعود فيؤكد أن المتوسط العام لا يزيد عن نصف بالمائة.

ويذكر أن مشكلة صعوبة العربية ليست مقصورة على العصر الحديث فقط، بل تعود إلى أزمنة بعيدة، ويستشهد

على ذلك بقول المتنبى :

وكلمةٍ فى طريقى خفت أعربها

فيهتدى لى فلم أقدر على اللحَنِ

ثم يستشهد برفاعة الطهطاوى وكيف استطاع إتقان الفرنسية في زمن قصير، مدللاً على ذلك بخطاب كتبه الطهطاوى بالفرنسية يخلو من الأخطاء اللغوية.

ثم يعطينا الكاتب خلاصة هذا الفصل فى الفقرة التالية:

«وما أستخلصه مما سبق ليس أن الشعوب العربية شعوب جاهلة وعاجزة عن استيعاب لغتها الأم، لكن ما أستخلصه هو أن اللغة العربية لم تتطور كما ينبغى لتلائم العصر الذى نعيش فيه، وأنه آن الأوان لتحديثها . ومن العبث فعلاً التمسك برفض التغيير على أساس دعاوى واهية تلعب دورًا رئيسيًا فى تخلف العقل العربى.

● **التعقيب :**

يدور هذا الفصل - كما نرى - حول دعوى صعوبة العربية، واتهامها بالعجز والقصور، وأنها لا تلائم مقتضيات التفاهم؛ لذلك هجرها العرب.

أولاً : العرب لم يهجروا الحديث باللغة العربية :

فلا زالت العربية تُسمَعُ في نشرات الأخبار وفي منتديات الشعر والمحافل العلمية، وقاعات المحاضرات وفي خطب الجمعة والدروس الدينية، وتلاوة القران الكريم، وعلى المستوى المكتوب: نجد الكتب والصحف.

ونحن - وكل العقلاء واللغويين - نرغب في المزيد من التواصل مع العربية، إلا أن رغبتنا هذه لا ينبغي أن تتحول إلى تحامل على العربية.

● **مبالغة تخالف الواقع :**

ثم دعوى الكاتب أنه لا يوجد عربى واحد فى المشرق أو فى المغرب يتعامل بالفصحى!!

هل هذا كلام يقوله عاقل أو منصف؟! لقد أطاح صاحبنا بقمم المبدعين والمهرة فى التحدث بالعربية الفصحى بتلقائية.. إنه كلام يفتقر إلى الدقة العلمية، وهو أقرب إلى التهويل والمبالغة الفجة التى يكذبها الواقع.

فماذا عن الإذاعيين المهرة أمثال: إبراهيم عيسى، أحمد وهدان، فاروق شوشة ، متولى درويش، محمد أبو الوفا، د. هشام محفوظ، ومذيعى إذاعة القرآن الكريم وبخاصة: إبراهيم مجاهد، أشرف حمدى، سيد صالح، شحاتة العرابى، د.عبد الله الخولى، وغيرهم الكثير.

ومن مذيعى التليفزيون: زينب سويدان، صفاء حجازى، عاصم بكرى، عمر توفيق، نرمين البيطار ؟

وماذا عن الممثلين المهرة أمثال: أشرف عبد الغفور،

حمدى غيث، رشوان توفيق، سميحة أيوب، عبد الوارث عسر، عثمان محمد على، محمد السبع، محمد وفيق، محمود ياسين، نور الشريف؟

وغير هؤلاء كثيرون ممن يُحسنون العربية، وهم نماذج من عامة المثقفين، فما بالنا برجال الأزهر الشريف الذين يعدون بالآلاف وليس بالمئات، وعلى رأسهم الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى، وسماحة المفتى الدكتور على جمعة، والدكتور أحمد عمر هاشم، والدكتور محمد المسير، والدكتور مسموع أبو طالب؟

وماذا عن اللغويين وأساتذة الجامعات أمثال: الدكتور جابر قميحة، والدكتور شوقى ضيف، والدكتور الطاهر مكى، والدكتور عبد الحكيم راضى، والدكتور عبد الصبور شاهين، والدكتور عبد العظيم المطعنى، والدكتور كمال بشر، والدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، والدكتور محمود مكى؟

وهكذا عشرات العلماء، وشيوخ المجامع اللغوية. وهذه الأسماء أمثلة فقط.

● أمّا عن دعوى صعوبة العربية التى يكررها فى كل فصل، فهى من المفاهيم الخاطئة التى أشاعها أعداء العربية، ونحن فى الواقع نعيب لغتنا والعيب فينا، فليست اللغة الفصيحة باللغة الصعبة إذا توافر لها المناخ المناسب، ووسائل التعليم الميسرة، ودخلت حياتنا العامة والخاصة، وليست العامية باللغة السهلة إذا كانت تكتسب عن طريق التعلم والدراسة وليس عن طريق التقليد والمحاكاة.

فإذا كان هناك من ضاق باللغة العربية، أو أحس بالعجز أمامها فهل عجزه عن استعمالها وجهله بها يسمح له أن يتحامل عليها ؟!

أم الحل فى تيسير تعليمها، واتباع وسائل معاصرة والاستفادة من مناهج تعليم اللغة الوطنية الأجنبية التى حددها علم اللغة التطبيقى؟

ومن أكبر الأوهام – كذلك – ما يدعيه الشوباشي من أن الفصحى لغة جامدة متحجرة تعكس اهتمامات وخبرات عفى عليها الزمن ولم تعد تدخل فى تجاربنا المعاصرة وأنشطتنا المستحدثة، وهذا كلام يصطدم مع إنجازات علم اللغة الحديث الذى يقرر أن اللغة مرآة العقل، وهى انعكاس لإنجازات أصحابها الحضارية، وأن اللغة لا تنمو فى فراغ، وإنما تنمو نتيجة نمو أصحابها، وتزداد ثروتها اللغوية بازدياد خبرات أهلها وتجاربهم.

ولا توجد لغة يمكن أن تُتَّهَم فى ذاتها بالقصور أو العجز، لأن أى لغة – كما يقرِّر علم اللغة الحديث – تملك القوة الكامنة للتعبير عن الحاجات الضرورية لأى حضارة، بمعنى أنه لا توجد لغة يمكن أن يقال عنها إنها بدائية أو ناقصة التكوين.

والتاريخ يثبت لنا نجاح لغتنا العربية فى استيعاب كل

جديد، وأنها لم تقف عاجزة فى يوم من الأيام وبخاصة حينما استعان بها أهلها لترجمة علوم الآخرين خصوصًا إبان عصر الترجمة النشط خلال حكم العباسيين، كذلك في العصر الحديث، رأينا فى الحملة الأنجلو أمريكية على العراق، كيف أن العرب قد عجزوا ولم تعجز العربية، التى استوعبت - على الفور - هذا التدفق المتلاحق من المصطلحات والتعبيرات والألفاظ لدرجة جعلت اللغويين يتوقفون أمام قدرة العربية فى حرب الكلمات التى دارت بين المعسكرين على المستوى الإعلامى[(١)].

ثم إن من يرجع إلى الكتابات والدراسات التى تناولت اللغة العربية المعاصرة، وإلى المعجم الوسيط، والمعجم العربى الأساسى، ومعجم التعبير الاصطلاحى[(١)]، يظهر له إلى أى مدى أمكن للغة العربية أن تتطور، ويدرك أن أبناءها قد

---

(١) راجع: حرب الكلمات، د.محمد محمد داود، القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٣.

سلكوا فى تطويرها سبلاً مختلفة، كالاشتقاق والتعريب والنحت، وإحياء الألفاظ القديمة، ونقل المعنى . . .إلخ.

ولكن الدراسة النظرية وحدها لا تخلق لغة، وإنما يخلقها الاستخدام والممارسة وربطها باحتياجات أهلها وخبراتهم وحياتهم اليومية.

وخلاصة القول أن دعوى الصعوبة تعود إلى **مستخدم اللغة** وتقصيره فى تعلمها وممارستها، وليس إلى **اللغة** ذاتها.

● قراءات خاطئة للمؤلف:

قدم المؤلف فى هذا الفصل أكثر من استشهاد فى غير موضعه، ومن هذه الاستشهادات البيت الذى استقى منه

(١) معجم التعبير الاصطلاحى فى العربية المعاصرة، د. محمد محمد داود، القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٣.

عنوان الفصل، وهو قول المتنبى :

وكلمة في طريقي خفت أعــربها

فيهتدى لى فلم أقدر على اللحن

فقد أورد البيت فى سياق التدليل على أن الناس فى عصر المتنبى (القرن الرابع الهجرى) لم يكونوا يحسنون العربية، بل إن الصفوة فقط هم الذين كانوا يتمكنون من التحدث بالعربية الفصحى دونما لحن، ويستخلص من هذا البيت أن القاعدة - فى ذلك العصر - هى عدم القدرة على التحدث بالعربية، وأن الذين كانوا قادرين على ذلك هم شواذ القاعدة ومنهم المتنبى .

والسؤال الذى نوجهه للمؤلف فى هذا الصدد :

* إذا كان الناس فى عصر المتنبى جهلاء باللغة الفصحى، عاجزين عن التحدث بها، فمن هؤلاء الذين كانوا يتناشدون شعر المتنبى؟! ولا شك أن شعر المتنبى

كان ملء الأسماع والقلوب آنئذ، لدرجة جعلت معاصريه من النقاد والمؤرخين يقولون عنه: إنه شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس. وجعلته هو نفسه يقول مفتخراً:

وما الدهر إلاَّ من رواة قصـــائدى
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

ويقول:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صممُ

وهذا – وإن كان فيه مبالغة – إلا أنه يشير بلا شك إلى ما لشعر المتنبى من ذيوع وانتشار، فكيف كانوا يقرأون شعره ويتناشدونه من دون معرفة بالعربية !!

ثم إن معنى البيت كما شرحه أبو العلاء المعرى[1]:

ربَّ كلمةٍ خفت فى إظهارها، فلم أقدر على أن ألحن

فيها، لأنى مطبوع على الصواب فى الإعراب.

إن المتنبى هنا يمدح نفسه، لكنه لا ينفى عن الآخرين صفة الفصاحة أو القدرة على الإعراب.

بعد هذا الإيضاح نسأل: هل كان المتنبى يخاف من الإعراب كما قررت في عنوان هذا الفصل؟

أما بشأن رفاعة الطهطاوى ومدحه لسهولة الفرنسية، فلو تدبر الشوباشى الأثر الفعلى الذى حاول الطهطاوى أن يطبقه على العربية - تأثراً بالفرنسية - فإنه سيرى أنه ركَّز على أسلوب تعليم العربية وتيسير الوسائل، ويظهر ذلك من خلال التبسيط فى وسائل التعليم من خلال الجداول المنظمة السهلة التى وضعها فى كتابه «التحفة المكتبية لتيسير تعليم العربية»، لكنه لم يهدم شيئاً من العربية.

---

(١) معجز أحمد (شرح ديوان المتنبى)، أبو العلاء المعرى، تح /د. عبد المجيد دياب، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦- ٢/ ٢٤٥.

فـالتـيـسـيـر فى الوسـائل وليس فى هدم الثـوابت. ومـا يعقلها إلا العالمون !

شيزوفرينيا لغوية

يتعرض المؤلف فى هذا الفصل إلى مشكلة الفصحى والعامية، حيث يصف الوضع بين الفصحى والعامية بأنه *وضع غير طبيعى، وأنه يكلف العقل العربى جهدًا كبيرًا يحط من قدراته كما يشتت ملكاته الفكرية وأن العربى مهدد بانفصام فى التفكير بسبب مشكلة الفصحى والعامية: هل يفكر بالفصحى أم بالعامية ؟*

ثم يرتب المؤلف مشكلة أخرى تتسبب فيها ازدواجية الفصحى / العامية، فيقول:

وما يزيد الأمر تعقيدًا ان العربى الطامح للتقدم فى العملية التعليمية وتطوير قدراته يضطر إلى إجادة لغة أجنبية كالإنجليزية مثلاً؛ لأنها لغة العلم، وتعدد اللغات -

وإن كانت له إيجابيات كثيرة - إلا أنه قد يشتت الإنسان عن صلب المعرفة، خاصة عندما يضطر إلى تعلم لغتين لممارسة حياته العادية، كما هى الحال بالنسبة لنا نحن العرب.

ويتساءل المؤلف: فى إطار هذا الوضع، هل تصبح العربية الفصحى مثل اللاتينية تفرخ لغات أخرى من باطنها، لكنها لا تستخدم فى حد ذاتها وتتحول إلى لغة ميتة؟

ثم يستنهض علماء العربية بقوله:

علينا ألا نكتفى بالقول بأن العربية هى لغة القرآن وبالتالى فلا يمكن أن تُمَسَّ، وسيظل العرب يتحدثون بها إلى الأبد، فهذا لا يكفى، وإنما علينا أن نعمل جاهدين على تطويرها. ويذكر ملاحظة شخصية له: أنه كلما ابتعدنا زمنيًا عن اللحظة الفاصلة، وهى لحظة نزول القرآن،

ابتعد الناس عن الفصحى لحساب اللهجات. نعنى أن اللهجات قد انتشرت كلغة للتعامل اليومى حتى فى مكة المكرمة.

ثم يطرح المؤلف سؤاله المتكرر: *لماذا هجر العربى الفصحى فى كل زمان ومكان، ولجأ إلى لغة أخرى للتعامل اليومى ؟!!*

ليصل إلى إجابة يرتضيها، وهى أن *الفصحى - بشكلها الحالى - ليست لغة صالحة للتعامل اليومى؛ نظرًا لصعوبتها وتعقيداتها.*

وبعد ذلك ينتقل إلى سؤال آخر:

- *لماذا انتصرت العربية (لغة الفاتحين) ووجهت ضربة قاصمة إلى كل لغات المنطقة ؟!*

ثم يخلص إلى أن هناك عوامل كثيرة وراء انتصار

العربية على لغات البلاد المفتوحة، لكن المهم هو أن العربية لم تنجح فى فرض نفسها كلغة تعامل، وانتشرت اللهجات وفقًا للعادات فى كل منطقة، وهذا ما أطلق عليه الجاحظ: لغة المولدين والبلديين، ومع الوقت أصبح اللحن والخطأ فى العربية هى القاعدة بالنسبة لعامة الناس.

ويستشهد برواية ابن قتيبة أن أعرابيًّا دخل السوق فسمع الناس تخطئ وتلحن فى العربية، فقال: سبحان الله! يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح!!

ثم ينتقل إلى طبقات العلماء والفقهاء كأبى حنيفة وعمرو بن عبيد، ويقول: هؤلاء العلماء الأجلاء كانوا عاجزين عن التحدث باللغة العربية الفصحى.

ثم يتساءل: إن كان هذا حال العلماء، فما بالك بعامة الناس؟!

ومن الأمثلة التى ذكرها على فساد اللغة كتاب «بدائع

الـزهـور » وباختصار، وحتى فى العصور الذهبية للدولة الإسلامية كان الناس يخطئون فى العربية كما يخطئ العرب فى القرن الحادى والعشرين، وكانوا يُؤْثِرون اللهجات.

ثم استرجع فكرة استخدام العامية التى طالب بها من قبله: سلامة موسى الذى يقول عن الفصحى: ورثناها عن بدو الجاهلية فى عصر الناقة، ويراد لنا أن نتعامل بها فى عصر الطائرة !!

وينتهى فى هذا الفصل إلى قوله:

وأيًا كان موقفنا من هذا الوضع اللغوى، فإن حالة الشيزوفرينيا التى نعيشها معرقلة للتقدم ومعطلة لطاقات العقل العربى. والعرب - فى هذا المجال - هم حالة لغوية فريدة ووحيدة فى عالم اليوم. فإذا كان لابد أن ننفرد بشىء، فالأفضل أن ننفرد بما هو نافع ومتميز، وليس بما هو

ضار ومعرقل.

● **التعقيب :**

النقطة التى يدور حولها المؤلف فى كل فصل، ويتناولها من وجوه مختلفة، هى صعوبة العربية، وأنها عائق خطير أمام العقل العربى.

وفى هذا الفصل نراه يأتى من زاوية مشكلة الفصحى والعامية، وقد أكَّد علماء اللغة أن سبب سهولة العامية كما نراها فى الواقع المعاصر هو الممارسة والاستعمال، فى حين أن الواقع المضطرب للفصحى إنما هو انعكاس لاضطراب أهلها اجتماعيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا، وأنها فى حقيقة الأمر منعزلة عن سياقاتها وبيئاتها الطبيعية، ولذلك وصفوها بالجمود وما هى بجامدة، وإنما الجمود فى أهلها؛ إذ حرموها أن تُمارَس فى حياتهم فعزلوها، فى حين أننا نتكلم العامية بطلاقة.. هل خلقنا بها؟ ولكننا نستعملها

نستعملها فى شتى مناحى الحياة، نتكلم بها ليلاً ونهاراً فتنطبع فى أذهاننا، فيأتى الكلام فيما بعد على منوال ما انطبع فى أذهاننا.

وترتب على ذلك أننا أصبحنا مهرة فى الحديث بالعامية بفضل الممارسة، فعلى قدر ما تستخدم اللغة – أى لغة – وتمارسها، تكون مهارتك فيها، فالقواعد تكسب المعرفة النظرية باللغة، والممارسة تكسب المهارة اللغوية، وتصبح اللغة بفضلها سهلة ميسورة.

إذن العيب والعجز فى مستعمل اللغة. وحين ندرس اللغة معزولة عن الممارسة.. فالمشكلة القائمة بسبب طغيان العامية فى الاستعمال مرجعها إلى نقص الدربة وعدم الممارسة.

وأمر آخر ينبغى أن نفطن له، هو أننا لسنا أمام لغتين مختلفتين كما تخيل الشوباشى، ولكننا أمام مستويين

داخل لغة واحدة، والفهم لا يتعسر أبداً على العامة إذا ما سمعوا الفصحى، فهم يسمعون خطب الجمعة والدروس الدينية بالفصحى ويفهمون، ويسمعون المسلسلات التاريخية بالفصحى ويفهمون، ويسمعون الندوات والمناقشات ... إلخ.

المهم أن نعلم أن للفصحى مساحة تتحرك فيها، وللعامية مساحة تتحرك فيها، وليس مقبولاً فى الذوق اللغوى أن تحتل الفصحى مكان العامية، فالرجل الجالس على القهوة يطلب الشاى وينادى : يا عسل، واحد شاى... إلخ، وليس من المعقول أن نطالبه بأن يتكلف الفصحى، وقديمًا قيل: أبرد من مستعمل النحو فى الحساب.

إن الذوق اللغوى لا يقبل هذا فى الاستعمال، وفى المقابل، فإن العامية لا تصلح لكتابة البحوث العلمية

والقصائد الشعرية والندوات والمحاضرات ونحو ذلك.

ولكل عصر عاميته وفصحاه، حتى فى العصر الجاهلى ذاته ، كما أن اللغة العامية تميل إلى تجسيد المعنى، أما ما هو عميق ومجرد، فالفصحى هى التى تصلح أداة له.

فاللغة العامية غنية بقدرتها التعبيرية عن الحياة بكل ما فيها من تناقضات وفوارق فى المعنى المتجدد الحى، لا التناقضات او الفوارق التى تحتاج إلى إعمال الفكر وإجهاد العقل للوصول إلى دلالاتها المحددة، وذلك أن العامية هى تعبير عن العامة وعقولهم العامية، وهى لهذا السبب عينه قاصرة عن أداء التخيلات والأفكار العميقة، فالمعانى والأفكار العامية يناسبها التعبير عنها بلغة عامية، وعلى سبيل المثال، لا تستطيع العامية أن تعبر عن الأفكار الفلسفية والخيالات ذات الصبغة الشمولية؛ فلن تستطيع الألفاظ العامية أن تجارى الفصحى فى وصف هذه المعانى

كما يصفها صلاح عبد الصبور في قصيدة «أغنية إلى الشتاء»:

يُنبئني شتاء هذا العام أنني أموت وحدى
ذات شتاء مثله، ذات شتاء ..
وأن أعوامى التى مضت كانت هباء
وأننى أقيم فى العراء
يُنبئنى شتاء هذا العام أننى مريض
وأن أنفاسى شوك
وأن داخلى مرتجف برداً
قد ذوى حين ذوت..
أول أوراق الشجر
ثم هوى حين هوت
أول قطرة من المطر
وأن دفء الصيف إن أتى ليوقظه...
فلن يمد من خلال الثلج أذرعه
حاملة ورداً

فتجربة الإحساس بالموت وعراء الإنسان أمامه من كل دفاع أو ستار ورجفة الروح حين يجرفها هذا الشعور العميق الكلى الذى يُحيل العالم كله إلى تفاصيل فى نسيجه، حتى يرى الشاعر الموت متحققًا فى الشتاء والشجر والمطر والعراء والذبول . . .إلخ. هذه التجربة الشمولية ذات الطبيعة الدائمة، لا يُعَبَّر عنها إلا بلغة فصيحة، ذات تراكيب فصيحة، وبنية فصيحة، ودلالات فصيحة.

وعكس هذا فى (الدراما) التى هى وصف للصراع القائم فى الحياة، فإنها تحتاج إلى لغة يومية تعبر عن مضمونها الذى ينحو إلى التجسيد، وعلى سبيل المثال فإن أعمال توفيق الحكيم الدرامية رغم ريادتها، وروعة ما تحمله من أفكار عميقة، إلا أنها تتسم بالتجريد أو « الذهنية » مما يبتعد بها عن الاتجاه الدرامى الذى يحتاج إلى العامية؛ ليكون معبِّرًا عن الحياة اليومية بتفاصيلها وظلالها.

وهذا الكلام ينطبق على الحوار فى القصة والرواية، فلو

كان المتحدثون فصحاء - بالمعنى العقلي للفصاحة- فإن حديثهم لابد بالتالي أن يكون فصيحًا، وإن كانوا عامة أو يتناولون أمورًا عامية، فإن حوارهم ينبغي أن يكون عاميًّا في بنائه وتركيب عباراته وألفاظه.

« واللغة العامية تختلف باختلاف الشعوب، وتختلف في الشعب الواحد باختلاف مناطقه، فعامية العراق لا يكاد يفهمها المصريون أو المغاربة.. وفي البلد الواحد تختلف اللهجات العامية باختلاف طوائف الناس، وباختلاف المناطق فعامية المنيا غير عامية جرجا »(١).

واللغة العامية لغة حديث وليست لغة كتابة، على عكس الفصحى، ولعل هذا لا يحرمها من سياق الموقف الذى تحرم منه الفصحى، « حيث إن السياق المنطوق يظهر الوقفات العديدة والنغمات المختلفة والنبر بدرجات مختلفة

---

(١) فقه اللغة،د.على عبد الواحد وافى، القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٨٨، ص ١٥٨.

مختلفة أيضًا، ثم الضحك أثناء الحديث»[١]. وهذه الخاصية (كونها لغة حديث) تتيح لها فرصة الانتقال من السلف إلى الخلف في سن الطفولة عن طريق التقليد والمحاكاة، وكون اللغة العامية لغة حديث فإن ذلك يجعلها عرضة للتغير والتطور؛ حيث إن الخطاب المنطوق يتميز بأنه يبدل كلمة محل كلمة أخرى نتيجة لهذه القدرة التصحيحية الفورية، أضف إلى ذلك أنه يحتوى على بدايات لغوية خاطئة، ويتميز بالوقفات الداخلية Internal pauses، ويتميز بما كان قد دعاه «لايكوف» عالم الدلاليات الأمريكي (١٩٧٥): «الكلمات المفرغة من وظيفتها اللغوية»[٢].

واللغة العامية «لغة فقيرة في مفرداتها، ولا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث

(١) دراسات لسانية تطبيقية، د. مازن الوعر، دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩، ص ٨٥.
(٢) السابق، ص ٨٤.

العـادى»[1]، وهـذا شىء نـلمسـه فى الواقع اللغوى المعاصر لاستـعمال العـامية، حتى إنـه أمام عجز مـفردات العـامـية عن التـعبير عن الأشياء الدقـيقة، يستـخدم العامـة بعض الألفاظ ويعـممـون استـخدامـها، فـيطلقونـهـا على عشرات الأشـياء، ويفـهـم السـامع من سـياق الموقف قـصـد المتكلـم وليس من لفظه، بل اللـفظ هنا لا يعـدو أكـثر من صوت يثـير الأشـياء فقط، مثل: «هات البتاعة دى»، و(البتاعة) هذه قد تكون مأكولاً أو مشروبًا أو ملبوسًا أو آلة... إلخ.

يضـاف إلى هذا: جـهـود تـفـصـيح الـعـامـية، وهـى جـهـود على مستوى المجامع اللغوية، ومـسـتوى الأفراد من الباحثين، لتقريب المسافة بين المسـتويين: مسـتوى الفصحى ومسـتوى العامية، ونجد فى قمة هذه الأعمال:

معجم تيمور الكبير[2].

(١) فقه اللغة، د. على عبد الواحد وافى، ص ١٥٧.

(٢) مـعـجم تيـمـورالكبـير فى الألفـاظ العـامـيـة، تأليـف أحـمـد تيـمـور، تحـ/ د.حسين نصار، القاهرة: دار الكتب، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

المحكم فى أصول الكلمات العامية[1].

خلاصة تهذيب الألفاظ العامية[2].

مشكلات اللغة العربية[3].

معجم الألفاظ العامية[4].

معجم ألفاظ الكلام فى العامية المعاصرة[5].

العامية فى ثياب الفصحى[6].

---

(١) المحكم فى أصول الكلمات العامية، د. أحمد عيسى، القاهرة: دار الآفاق العربية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٢) خلاصة تهذيب الألفاظ العامية، الشيخ محمد على الدسوقى، القاهرة: المطبعة الرحمانية، ط١، ١٣٤٢هـ- ١٩٢٤م.

(٣) مشكلات اللغة العربية، محمود تيمور، القاهرة: المطبعة النموذجية، ط١، ١٩٥٦م.

(٤) معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية، وضع/د.عبدالمنعم سيد عبد العال، القاهرة: مكتبة الخانجى، ط٢، ١٩٧٢م.

(٥) معجم ألفاظ الكلام فى العامية المعاصرة، د. محمد محمد داود، القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٢.

(٦) العامية فى ثياب الفصحى (بلاغتها، أمثالها، خصائصها)، سليمان محمد سليمان، د.ت، طبعة خاصة.

بالإضافة إلى هذا نجد أن أكثر الأعمال الإبداعية بالفصحى، وأقلها بالعامية، فمثلاً من بين مئات الشعراء نجد شعراء الفصحى المعاصرين: فاروق شوشة، وفاروق جويدة، وأحمد سويلم، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وأحمد عبد المعطى حجازى، ومحمد عفيفى مطر، وجمال القصاص، ومحمد سليمان... ولا نجد سوى شعراء قليلين اختاروا العامية، منهم : عبد الرحمن الأبنودى.

وفى الرواية التى تقوم على السرد، ومحاكاة لغة الحياة اليومية، لا نجد سوى نموذج واحد لرواية كتبت بالعامية من أولها إلى آخرها، وهى رواية «قنطرة الذى كفر» لمصطفى مشرفة، ومن المفارقات أن عنوانها كما نرى بالفصحى لا بالعامية.

وحتى الدراما التى تكتب للأطفال تُكتب باللغة الفصحى، كما فى كتابات كامل كيلانى.

هذا يعنى أن الكاتب لا يجد فى العامية سعة كافية للتعبير عن أحداث الحياة، ولا عن حمل التجربة الإبداعية والقيم الجمالية التى يريد التعبير عنها، إنما وسيلة ذلك هى الفصحى كما تشهد هذه الإبداعات، وغيرها.

وبعد هذا العرض يا صاحبى، هل ظهر لك بوضوح: أن العيب فينا وليس فى فصحانا؟

● ثم التشويش الذى ذكره المؤلف ليس ناشئًا عن وجود الفصحى والعامية، وإنما التشويش الحقيقى فى تكوين الطفل منشؤه مزاحمة اللغات الأجنبية للغة الأم (العربية) فى سنى التعليم الأولى، وفى تدريس العلوم المختلفة بالإنجليزية أو غيرها من اللغات الأجنبية للتلميذ العربى فى الابتدائى والإعدادى، فتحدث من جراء ذلك عملية تغريب للغة العربية وللعقل العربى.

● وهنالك أمر آخر: التقصير فى تعريب علوم الطب والهندسة والفلك والفيزياء ... وغيرها، ونذكر هنا

التجربة الناجحة لسوريا فى تعريب العلوم، حيث يدرس الطب والهندسة وغيرهما بالعربية فى الجامعات السورية.

ينبغى أن نكون على وعى، لأن أهل كل لغة تنشط همتهم لنشر لغتهم ودعمها: إمًا كلغة أولى فى بلادهم، أو كلغة ثانية خارج بلادهم، وتتكاتف المؤسسا ت المختلفة لإنجاز هذه المهمة، وتُرصد نفقات هائلة لهذا الغرض(١).

● أما عن قوله إن العربية ستصبح كاللاتينية وتتحول إلى لغة ميتة، فهذا مُحال؛ لأن ارتباطها بالقرآن الكريم يدفع الناس إلى تلاوة هذا الكتاب العظيم وقراءة تفاسيره، والعلوم المرتبطة به من فقه وتجويد ... إلخ.

وفوق كل هذا أن الله تعالى قد تعهد بحفظ القرآن الكريم، قال عز وجل: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ الحجر/٩. وفى حفظ القرآن حفظٌ للغته فلا

---

(١) اللغة والسياسة، د. محمد محمد داود، مبحث القومية واللغة.

تندثر كما اندثرت لغات كثيرة، ولا تتحول إلى لغات أخرى، إنما هى مستقرة باقية، حية مرنة، تستوعب أمور الحياة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وما يعقلها إلا العالمون.

وأيضًا لقدرة العربية على استيعاب العلوم، وكل جديد من مواليد الحضارة، وما لها من تاريخ تليد فى هذا، غاية ما فى الأمر أن ينشط أهلها، وأن يعود العقل العربى المُغيَّب ليسهم فى الحضارة ويزاحم على المقدمة، وتكون العربية خير عون له فى رحلة التطور والإصلاح.

● أما عن دعوى صاحبنا أن العربية التى دخلت مع الفاتحين إلى البلاد التى أسلمت وتم تعريبها، قد عجزت عن الوفاء بحاجات التعامل اليومى، وتراجعت لحساب اللهجات المحلية الخاصة بكل بلد، فالحقيقة أن هذا الكلام مخالف للواقع، ومصر خير نموذج يستشهد به، فاللغة

الفصحى لم تعجز يومًا فى أى محفل من المحافل التى ينبغى أن تكون فيها، وما زالت الفصحى ظاهرة، قد يحدث لها تراجع بتراجع أهلها، لكن ليس بسبب مزية فى العامية أو عيب فى الفصحى.

● أما الرواية التى نقلها عن ابن قتيبة أن أعرابيًّا دخل السوق فوجد الناس تلحن وتخطئ، فالمعنى أن هذا الأعرابى وجد الناس تتحدث العامية، لأنهم كانوا ينظرون إلى العامية على أنها لحن فى الفصحى، وليس المعنى كما تصوَّر صاحبنا الشوباشى.

● أما عن دعواه أن أبا حنيفة وعمرو بن عبيد وغيرهم من جلة العلماء، كانوا عاجزين عن التحدث بلغة عربية سليمة مائة فى المائة، فهذا افتراء لا يصح عقلاً ولا نقلاً.

فالإمام أبو حنيفة له من المهارة اللغوية ما يستشهد به، وهذه أبيات من قصيدته الشهيرة التى نظمها عند زيارته

زيارته لحضرة النبى ﷺ، يقول الإمام أبو حنيفة:

يا سَيدَ السادات جِئتُك قاصداً
أرجُو رِضاكَ وأحْتمى بحماكا
والله يا خَيرَ الخلائقِ إن لى
قلبًا مَشُوقًا لا يرُومُ سواكا
وبحقِّ جاهِكَ إننى بكَ مُغْرَمٌ
واللهُ يَعلمُ أننى أهواكا

إلى قوله فى ختام القصيدة:

صَلَّى عليكَ اللهُ يا عَلَمَ الهُدَى
ما حَنَّ مُشْتاقٌ إلى مَثْوَاكَا
وعَلَى صحابَتِكَ الكِرامِ جميعِهِمْ
والتابعينَ وكُلِّ مَنْ والاكا

ونرى فى هذه الأبيات شاهداً على بلاغة الإمام أبى حنيفة وفصاحته وذوقه الشعرى الرفيع.

● وأما النهاية التى ينهى بها صاحبنا كل فصل، عازفًا على وتر الازدواجية اللغوية بين الفصحى والعامية، التى عبَّر عنها تعبيرًا مخالفًا لحقيقة واقعها فأسماها (شيزوفرينيا)، وأن هذه الازدواجية تؤدى إلى تخلف العقل العربى وعجزه، فإننا نقول له:

ما أهون الأمر لو كانت مشكلة العقل العربى لغوية كما ذكرت يا صاحبى !! ونكرر لك دائمًا: عجز اللغة من عجز أهليها وعجز عقولهم.. **نعجز ولا تعجز اللغة**، هذه حقيقة من حقائق علم اللغة الحديث. وما يعقلها إلا العالمون!

غاية اللغـة

يدور هذا الفصل حول عنصرين:

● **الأول**: إيضـاح أن غـايـة اللغـة هي التـواصل، وأنهـا وسيلة التعبير والتفاهـم مع الآخرين. وهذه بدهية لا خلاف معه فيها.

● **الثاني**: أن المجتمعات العربية تشذ - على حد تعبيره - عن هذه القـاعـدة، فـالعـربيـة - كـمـا تسـتخـدم للتـعـبـيـر والتفاهـم والتواصل - تستخدم للطرب والنشوة بالكلمات، سواء في الشعر أو في النثر. ويضرب مثلاً بما كان يحدث في قصور الخلفاء والأمراء من الشعراء والعلماء.

ويحـمـل صـاحـبـنا على براعـة العـرب في الكلام، وأن اللغة شغلتهم وصرفتهم عن الإسهام في الحضارة والجوانب

الأخرى من الإبداع. ويركز على الانعكاسات السلبية للغة، ومن أبرزها جنوح العقل العربى إلى الاهتمام بالشكل على حساب الجوهر، ويستشهد ببيت المتنبى:

أغاية الدين أن تُحْفُوا شواربكُمْ

يا أمة ضحكت من جهلها الأممُ

فالعربى يهتم بالكلمات أكثر من المعانى، وبالمعانى أكثر من الأفعال. ثم يضيف عيبًا آخر للغة والعقل العربيين، وهو عنصر المبالغة، محاولاً الربط بين المبالغة والبلاغة، لأنهما مشتقان من نفس المادة، وإطلاق اسم لغة الضاد على العربية يعكس هذه النزعة، والقصائد الشعرية والأعمال الإبداعية العربية لا تخلو من المبالغة والتهويل والعنترية، ويستشهد بقول عمرو بن كلثوم:

إذا بلغ الرضيع لنا فطامًا تخر له الجبابرُ ساجدينا

ويؤكد المؤلف استمرار هذه النزعة إلى عصرنا هذا،

مشيراً من طرف خفي إلى مقولة أحد قادة فلسطين قبل هزيمة ١٩٦٧ : سوف نلقي بإسرائيل ومن وراءها إلى البحر، ومثل ذلك خطب صدام حسين الذى تأثر بتركيبة اللغة العربية، وبلغ في هذا ما لم يبلغه زعيم عربى آخر، فقد قال في تصريح عنترى عام ١٩٩٠ : إنه في حالة الاعتداء على العراق فسوف يحرق نصف إسرائيل.

أيضًا - كما يستشهد المؤلف - الصحف العربية لا تخلو من المبالغات.

ويبدو أن العربى يرضع مع تعلم اللغة نزعة فطرية إلى المبالغة والتوكيد.

وأسهب صاحبنا في التدليل، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ الصف/٢. ثم استشهد بقصيدة «سرحان يشرب القهوة» للشاعر محمود درويش، وذكر أن هناك مئات الأمثلة التى تؤكد

ميل العربى إلى (استعواض)[1] *الأفعال بالكلمات* على حد قوله، ويستشهد بامرئ القيس، وحسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ.

وأيضًا يذكر أن من أخطر الخصائص النفسية للعربى التى تلعب اللغة فيها دورًا لا يستهان به: علاقة العربى بالزمن، وعلاقته بالحسد والتشاؤم، ثم ينتهى إلى قوله: «*لكن المشكلة هى أن اللغة هى المرآة للتركيبة العقلية لمجتمع ما، كما أنها تؤثر تأثيرًا حاسمًا فى عقل المجتمعات التى تستخدمها*».

---

(١) الصواب صرفيًّا: استعاضة.

● التعقيب :

الجانب الجمالي في اللغة :

● كون اللغة العربية تمتلك خصوصيات ليست لغيرها، فهذه مزية وليست عيباً، فالطرب والنشوة وسائر النواحى الجمالية فى اللغة شيء يحسب للعربية لا عليها، ولا يمكن أن تكون هذه المزية وسيلة للطعن فى العربية. اما أن يسيء مستخدم اللغة استخدام هذه السمة والخصوصية، فهذا أمر يعاب على الإنسان وليس للغة ذنب فيه.

يضاف إلى هذا أن كل لغات العالم فيها مستويان: مستوى إشارى، ومستوى جمالى.

● وأما دعوى صاحبنا الشوباشى أن العرب لم يبدعوا أو ينشئوا فنًّا عظيمًا خاصًّا بهم سوى الكلام، فهذا أمر يخالف الواقع، فإسهامات العرب فى العلوم كثيرة، نذكر

منها على سبيل المثال لا الحصر:

- في مجال الطب: ابن سينا وكتابه (القانون) الذى كان يُدَرَّس فى أوربا حتى القرن السادس عشر.

- فى الكيمياء: جابر بن حيان.

- فى الفيزياء: ابن الهيثم.

- فى الرياضيات: الخوارزمى، ولا تزال كلمة لوغاريتم تستعمل فى اللغات الأوربية، وهى من اسم هذا العالم.

- فى الجغرافيا: ابن خرداذبة، والمقدسى، وابن بطوطة، وابن ماجد، وغيرهم.

- فى الهندسة والعمارة: هناك شواهد حية لفن العمارة العربية، أبرزها قصور الأندلس ومنها قصر الحمراء، وتاج محل فى الهند، والقصور المملوكية والفاطمية فى القاهرة.

• ومن العلماء العرب المحدثين: محمد مصطفى مشرفة، وفاروق الباز، ومجدى يعقوب، وأحمد زويل وغيرهم ممن توفرت لهم البيئة المناسبة فحققوا إنجازات علمية كبيرة.

• أما عن اتهامه للغة بأنها كانت السبب فى جنوح العقل العربى إلى الاهتمام بالشكل على حساب الجوهر، واستشهاده ببيت المتنبى:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم
يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

فالعيب هنا عيب عقل سلوكى، ولا صلة للغة به، فالمتنبى يعيب سلوكًا وطريقة معينة فى النظر إلى الأمور، واللغة هنا وسيلة – على لسان المتنبى – للإقناع والعلاج وإيقاظ الوعى، لكن صاحبنا من أول الكتاب إلى آخره حريص على القراءات المغلوطة للمواقف والأحداث،

وحريص على وضع الشاهد فى غير موضعه.

ومن الأمور المضحكة - وهو يدلل على خاصية جديدة فى العقل العربى - وهى المبالغة، بوصفها أثرًا من آثار اللغة على العقل العربى ذِكْرُه أن المبالغة جزء لا يتجزأ من البلاغة، وحجته فى ذلك أنهما مشتقان من نفس المصدر. ولم يدرك أن هناك فارقًا فى الدلالة، فالبلاغة تعنى: بلوغ الهدف والقصد والوصول إلى المراد، أما المبالغة فمعناها: مجاوزة الحد. وهذا أيضًا من الاستشهادات الخاطئة التى امتلأ بها كتاب صاحبنا الشوباشى.

تمامًا كما استشهد بإطلاق اسم لغة الضاد على العربية، على أن ذلك يعكس نزعة عربية إلى التهويل والمبالغة، وفاته أن الأشياء قد تُسمَّى بأظهر ما فيها، وتُمَيَّز بعنصر المخالفة الذى تتفرَّد به.

● ثم بأسلوب غير علمى - كما عودنا فى كتابه - يقرر

أن حرف الضاد ما هو إلا تفخيم وتضخيم لحرف الدال الذى تكتفى به كل لغات العالم الأخرى، ولنضرب عرض الحائط بنتائج علم اللغة المقارن وعلم اللغة التقابلى، التى أكّدت حقيقة أن صوت الضاد يميز العربية عن أخواتها الساميات.

وبأسلوب ينبئ عن نقص وعيه بالعربية، يهزأ صاحبنا من أبيات لعمرو بن كلثوم فى معلقته الشهيرة التى يرى أن بها أبياتًا تثير الضحك، مثل:

ملأنا البَرَّ حتّى ضاق عنّا ونحنُ البحرُ نملؤهُ سَفِينا

ويحاول أن يفسر الكلام دون انتباه إلى أن اللغة حقيقة ومجاز فيقول:

«*أما نحن، فنعرف أن العرب لم يملأوا واحدًا فى المائة من أرض الجزيرة العربية، كما لم يعرف لهم أية أساطيل صغيرة أو كبيرة، فما بالنا أن تضيق بهم الأرض، وأن يكون لهم أسطول يملأ البحر سفنًا*»!.

والحق أن قصيدة عمرو بن كلثوم لا تثير الضحك، وإنما تفسيره أحق بإثارة الضحك وأولى، وهذا خير شاهد ودليل على أن العيب فينا وليس فى فُصْحانا.

فقد أغفل بدهية من بدهيات اللغة عامة، هى المجاز فى اللغة، وفى الشعر خاصة، فالشعر فن يقوم على المجاز، ولو خلا من المجاز لما قامت له قائمة، شأن كل الفنون ليست مجرد محاكاة للواقع كما هو، بل تعبير عن هذا الواقع ممزوج بالخيال الشعرى. والشعر العربى ليس بدعًا فى هذا؛ فإن الشعر فى سائر اللغات يعتمد على المجاز أيضًا.

وتفسيره هذا خير شاهد ودليل على أن العيب فينا وليس فى فصحانا.

● ثم يستشهد صاحبنا استشهاداً لا يقبله عاقل، على أثر اللغة فى تشكيل العقل العربى على المبالغة والتهويل، وذلك بتصريح أحد قادة فلسطين قبل نكسة ١٩٦٧ بأننا

وذلك بتصريح أحد قادة فلسطين قبل نكسة ١٩٦٧ بأننا سنلقى بإسرائيل فى البحر، وتصريحات صدام حسين فى عام ١٩٩٠ أنه فى حالة الاعتداء على العراق فإنه سيحرق نصف إسرائيل، أيضًا يستشهد بالصحف العربية التى لا تخلو من أساليب المبالغة الفجة.

وكل هذه الاستشهادات ضد ما يريد صاحبنا الشوباشى، فهى علل سلوكية وعقلية وليست عللاً فى اللغة، ففى الوقت الذى أصدر فيه صدام حسين هذه التصريحات كان الرئيس حسنى مبارك يصدر نداءات تتسم بالحكمة وحسن تقدير الموقف بعيداً عن التهويل والمبالغة والانفعال والتهور، وجاءت هذه التصريحات متزامنة، ومن رئيسين عربيين متعاصرين، فاللغة تبع لمن يستخدمها، طيعة على لسانه، إن استخدمها فى الشر فهى لا تتابى عليه، وإن استخدمها فى الخير فهى طيِّعة على لسانه - ليتأكد لصاحبى

أن العيب فينا وليس فى فصحانا، وما يعقلها إلا العالمون.

● ثم ينتقل بنا إلى عيب آخر فى العقل العربى، وهو غياب الفعل وحضور الكلمات، ويستشهد على ذلك استشهادات كثيرة. وهذا أيضًا خلل سلوكى وفكرى لا صلة له باللغة.

● ثم ينتقل صاحبنا إلى اتهام آخر للعربية بأن لها خاصية الإبداع فى التعبير عن الفكرة بأسلوب غير مباشر وانعكست هذه الخاصية على العقل العربى فى أن العربى يؤثر عدم مواجهة الواقع، والالتفاف حول الحقائق بقدر المستطاع.

وهذه أيضًا مشاكل سلوكية ناتجة عن سوء التربية وأساليب القمع والتهديد، ولا صلة لها بما أسماه خاصية الإبداع بأسلوب غير مباشر، فكل الفنون العالمية غير مباشرة، ولكن من خلال الأحداث وسيرها تجعل المتلقى يفهم الرسالة، ومن القواعد المقررة فى الفنون أن المباشرة عدو الفن.

يفهم الرسالة، ومن القواعد المقررة فى الفنون أن المباشرة عدو الفن.

أما عن علاقة العربى بالزمن وأثر اللغة فى هذا، فالمؤلف يزعم أن الأزمنة غير واضحة فى العربية، وأن هناك خلطًا بينها كاستخدام المضارع فى موضع الماضى، أو الماضى فى موضع المضارع، وأن هذا قد أثر فى العقلية العربية وأدى إلى غياب الإحساس بالزمن.

والحق أن بنية الأزمنة العربية واضحة تمامًا: الماضى والمضارع، والمستقبل المعبر عنه إمَّا بفعل الأمر أو بأداة مصاحبة كالسين وسوف، ولن ... إلخ.

أما استخدام الماضى فى موضع المضارع أو العكس فيأتى لأغراض دلالية كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر/١.

جاء التعبير بالماضى هنا لتأكيد وقوع الحدث

المستقبلي، ومثله عبارة (زوَّجتُكَ ابنتى) التى استشهد بها، وصيغة الماضى هنا تأتى مناسبة لسرعة وقوع الحدث وتحققه؛ إذ العقد ينعقد بمجرد النطق بكلمتى الإيجاب والقبول، إنها لحظة قصيرة.

فغياب الحس اللغوى عند صاحبنا وعدم إدراكه لقوانين المعنى فى العربية جعله يتخبط خبط عشواء، حتى أتى كلامه ضد حقائق العلم وحقائق اللغة التى استقرت فى علم اللغة الحديث.

وفى كل هذا يتأكد لصاحبى الشوباشى أن العيب فينا وليس فى فصحانا. وجهلنا بحقائق اللغة لا يسمح لنا بالتحامل عليها. وما يعقلها إلا العالمون!

ضد تحنيط العربية

(مقترحات ميتة)

في هذا المبحث آثرت أن يكون الرد على كل جزئية أولاً بأول؛ لأن تقديم ملخص على نمط المباحث السابقة هنا قد يخل بقصد المؤلف، وهذا ما لا نريده.

هذا الفصل هو أخطر فصول الكتاب؛ لأنه أبان عن رؤية المؤلف للإصلاح الذى ينشده للعربية، حيث قدَّم لنا نموذجًا لرؤيته هذه في الواقع التطبيقي، ويحاول أن يستند إلى مدرسة الرأى عند المعتزلة، ومدرسة القياس عند أبى حنيفة فى الفقه، وتوضيح الخلاف بين مدرستي البصرة والكوفة بوصفهما نموذجين متعارضين: الكوفة نقلية، والبصرة عقلية.

وكذا محاولات المحدثين للخروج باللغة من إسارها

الحديدى الذى وضعه النحاة على حد تعبيره، مثل محاولات الطهطاوى والكواكبى وقاسم أمين، وكذلك إنشاء المجامع اللغوية.

ويؤكد صاحبنا فى بداية هذا الفصل أنه فى مشروع الإصلاح اللغوى الذى ينادى به حريص على ضرورة الحفاظ على اللغة الفصحى وعدم استبدال اللهجات بها، فهدف التطوير هو تخليق لغة وسط بدأت تظهر بالفعل من خلال لغة الصحافة، كما يؤكد أنه بعيد عن ذهنه تمامًا الدعوة إلى تطوير جذرى يقضى على أسس اللغة العربية، ثم يشرع فى إعطاء أمثلة لهذا التطوير:

● أول مفارقة يراها جديرة بالعلاج فى اللغة العربية هى *أن الكلمة تأخذ معناها من التشكيل وليس من موقعها فى الجملة، فالأصل فى العربية هو الجملة الفعلية*، ويعطى *لذلك مثالاً: ضرب الشابُّ الرجلَ، ضرب الشابَّ الرجُلُ.*

ثم يقـــرر أن الجملة فى اللغات الحية الحديثة هى جملة اسمية وليست فعلية؛ لأن الجملة الفعلية تجر التباسًا كبيرًا لدى القارئ أو السـامع، مع أن المنطق يقـول إن الفعل لا يأتى إلا بفاعل، فالفاعل هو الذى يسبق الفعل وله أولوية عليه.

أولاً: عنصر التشكيل، والمقصود به الحركات القصيرة: (الفتحة والضمة والكسرة) عنصر من عناصر المعنى فى نظام العربية، ولكل لغة نظامها ومنطقها الخاص، ودور الحركة فى المعنى موجود فى العربية وفى غيرها، غاية ما فى الأمر أن أسلوب التسجيل الكتابى للحركة يختلف فى العربية عن الإنجليزية مثلاً، حيث إن الحركات فى الإنجليزية تكتب داخل بنية الكلمة (الحروف المتحركة A-E-I-O-U)

كما تؤدى الحركة دوراً رئيسيًا فى المعنى، مثل: التمييز

بين المفرد والجمع كما في:

Man ---> Men
Woman ---> Women
Foot ---> Feet
Goose ---> Geese
Tooth ---> Teeth(١)

* كما تميز الحركة بين أزمنة الفعل، كما في(٢):

Simple form	Simple past	Simple form	Simple past	Simple form	Simple Past
blow	blew	get	got	run	ran
come	came	give	gave	sit	sat
dig	dug	lie	lay	win	won
draw	drew	ring	rang	write	wrote
Forget	Forgot	rise	rose		

---

(١) انظر:

- Understanding and using English Grammar by Betty Schrampfer Azar, 1989, U.S.A (P.20)
- Morphology, Francis Katamba, U.S.A, 1993, (P.102, 103)

(٢) انظر المرجع السابق (P.18, 19)

* انظر المرجع السابق

* هذا فضلاً عن دور الحركة في التمييز بين الكلمات المتشابهة؛ كما في:

- Air- ear.
- Dental - Dentil
- Flea - Flee.
- Hair - Hear
- Marry - Merry

وقامت معجمات متخصصة لرصد الكلمات المتشابهة التي يقع فيها الخلط واللبس في الاستعمال اللغوي بين المتحدثين في الإنجليزية[1]؛ من ذلك:

ونحن نفصّل في مسألة التشكيل التي يعتبرها صاحبنا حجر عثرة في العربية، ونفرق بين نوعين:

● التشكيل الداخلي للكلمة (ضبط البنية)، وهي حركات ثابتة.

---

(١) من ذلك:
NTC's Dictionary of Easily - Confused Words by: Deborah K.Williams, 1995, U.S.A.

• حركة الحرف الأخير من الكلمة (ضبط الإعراب) وهى حركات متغيرة.

للحركات الثابتة فى العربية دورها فى المعنى، وهو تحوير المعنى الرئيسى وتعديله؛ لأن المعنى الرئيسى للكلمة فى العربية يرتبط بالحروف الأصول (الصوامت)؛ كما فى الأمثلة التالية:

الخَصلة: خلق فى الإنسان.

الخُصلة: الشعر المجتمع.

الخُطبة: الحديث.

الخِطبة: طلب المرأة للزواج.

الخَلْع: التخلص من الشىء.

الخُلْع: أن يطلق الرجل زوجته على فدية منها.

الجَنَّة: الفردوس، والحديقة.

الجِنة: الجنون، والجن.

الجُنَّة: الوقاية.

وهناك مئات الكلمات المتشابهة على منوال الأمثلة السابقة ولا يفرِّق بينها إلا بهذه الحركات الداخلية الثابتة، ويترتب على هذه الحركات اختلاف في المعنى، وهي في الأسماء كما في الأمثلة المذكورة، وفي الأفعال كما في:

حَسَّ يَحُسُّ (بضم الحاء): أدرك.

حَسَّ يحِسُّ (بكسر الحاء): تألم لألمه وأشفق عليه.

قَسَطَ يقسِط (بكسر السين): عدل.

قَسَط يقسَط (بفتح السين): جار وحاد عن الحق.

نسب ينسُب (بضم السين): ذكر نسبه.

نسب ينسِب (بكسر السين): وصف محاسن المرأة.

وإغفال الحركات الثابتة يؤدى إلى انهيار كامل لجزء كبير من المعجم العربى، وزوال الفروق الدلالية، بعد أن ضحينا بعنصر مهم من عناصر المعنى فى العربية نزولاً على

رغبة صاحبنا.

● **ثم نأتي إلى العلامة الإعرابية على آخر الكلمة:**

والعلامة الإعرابية على أواخر الكلمات تدل على موقع الكلمة فى التركيب، للإبانة عن المعنى الوظيفى لها، والدرس اللغوى الحديث يتعامل مع اللغة فى إطار المنهج الوصفى الذى يصف الظواهر من خلال السلوك اللغوى الفعلى، بعيداً عن التأويل المنطقى المفروض من خارج اللغة، وينظر الدرس اللغوى الحديث إلى الحركة الإعرابية على أنها وحدة صرفية (مورفيم Morphim) لها أثرها فى تغيير المعنى؛ ويحقق الإعراب الوظائف التالية:

(١) الإعراب لون من سعة المعنى للألفاظ فى العربية؛ حيث تدل العلامة الإعرابية على المعنى الوظيفى للكلمة (المعنى النحوى)، وهو إضافة لمعنى الكلمة المعجمى، وبالتالى فالإعراب عنصر مهم من عناصر المعنى التى تشكل دلالة الكلمة فى الاستعمال

الاستعمال اللغوى، والتى تتكون من: (المعنى الصوتى، المعنى الصرفى، المعنى النحوى، المعنى السياقى)، وهكذا يمثل الإعراب ضربًا من ضروب الإيجاز فى العربية.

(٢) الإعراب مظهر من مظاهر مرونة العربية؛ حيث يُمكِّن المتحدث من التصرف فى دواعى التقديم والتأخير والحذف لأغراض تخدم المعنى، دون التقيد بالرتبة والموقعية.

(٣) يعد الإعراب مزية تميز العربية عن كثير من اللغات؛ فعن طريقه يتم الإبانة عما فى النفس من معانٍ فوق معانى الألفاظ.

والحركة الإعرابية (تشكيل آخر الكلمة) فى إطار علم اللغة الحديث تحقق وظيفتين:

(١) الوظيفة الصوتية للحركة الإعرابية:

للحركة أكثر من وظيفة صوتية فى اللغة؛ فعلى مستوى

الحرف (الصامت) تقوم الحركة بدور قوة الإسماع؛ فالحركة هى التى تجعل الحرف الصامت يُصَوِّت.

وعلى مستوى الكلمة تقوم الحركة بدور الوحدة الصوتية (الفونيم Phonem) التى يتغير المعنى بتغيرها.

وأيضًا على مستوى التركيب، للحركة دور صوتى بارز فى وصل نطق الكلمات، ويتأكد ذلك من خلال تأمل الواقع الصوتى للعربية فى أدق نص لغوى مقنن فى جميع مستوياته اللغوية (صوتية، صرفية، نحوية، دلالية) وهو القرآن الكريم(١)؛ فآيات القرآن الكريم تشهد بأن العربية

---

(١) من ينظر فى المصحف يلاحظ التالى:

(أ) أن الحرف الأخير من الكلمة الأخيرة بكل آية من آيات القرآن لا يكون إلا محركًا؛ مع أننا نقف على رؤوس الآى، أو ما يسمى بالفاصلة!

(ب) الحرف الأخير من الكلمة الأخيرة بآخر آية من كل سورة من سور القرآن الكريم لا يكون إلا محركًا؛ مع أننا نقف عند ختام السور.

(ج) الحرف الأخير من الكلمة الأخيرة بآخر سورة من سور القرآن الكريم لا يكون إلا محركًا، مع أننا نقف عند ختام القرآن؛ والسبب وراء تحريك الحرف الأخير فى كل ما سبق هو أن القرآن الكريم قائم على الوصل لا على الفصل. إذن وجود الحركة ضرورى لوصل الكلام.

قائمة على الوصل بين ألفاظها حال النطق[1]، وأن حركة الحرف الأخير من الكلمة (العلامة الإعرابية) تحقق هذا الوصل الصوتي بين الكلمات حال النطق بها، وهذا جزء من دور حركة الحرف الأخير في الكلمة.

(٢) الوظيفة الدلالية للحركة الإعرابية:

الاقتصار على دور الحركة الصوتي مع إغفال الوظيفة الدلالية لها، أمر يرفضه الواقع اللغوى في ضوء المناهج اللغوية الحديثة، التي تقوم على وصف الحقائق؛ اعتماداً على استقراء ظواهر اللغة نفسها، وبعيداً عن التحليل العقلي والتفسير المنطقي.

وواقع اللغة - كما جاءت إلينا عن طريق نصوص الشعر

---

(١) هناك آيات كثيرة جاء بشأنها تنبيه من النبي ﷺ ومن بعض الصحابة أو التابعين حين أخطأ بعض المسلمين من غير العرب حركة الإعراب لبعض الكلمات بهذه الآيات فاختل المعنى، من ذلك قوله تعالى:
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطر / ٢٨.
﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ التوبة / ٣.
وفي هذا ما يؤكد أن القرآن الكريم وصل إلينا مُعرباً.

الجاهلي والقرآن الكريم – يشهد أنها جاءت معربة، وأجمع القدماء من النحويين إلى قطرب على أن العلامة الإعرابية تشير إلى معنى تدل عليه، وقامت جهود تحدد هذه المعانى وتوضحها، وأوفاها وأشهرها كتاب الزجاجي: «الإيضاح فى علل النحو»[1]، حيث انتهى إلى أن تغير أواخر الكلمات مرتبط بما يصيب معانيها من تغير[2]؛ حيث ذكر أن الذى دعا إلى تغير الحركات هو «أن الأسماء لما كانت تتغاير معانيها، جُعِلَتْ حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعانى، فقالوا: ضرب زيدٌ عَمْرًا، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به. وقالوا: ضُرِبَ زيدٌ، فدلوا بتغيير أول الفعل ورفع زيد على أن الفعل مما لم يسم فاعله، وأن المفعول قد ناب منابه.

---

(١) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى، تح: مازن المبارك، القاهرة، ١٩٥٩م.

(٢) راجع بتفصيل: الظواهر اللغوية فى التراث النحوى، د. على ابو المكارم، ص ٩٢ وما بعدها.

ناب منابه. وقالوا: هذا غلام زيدٍ، فدلوا بخفض زيد على إضافة الغلام إليه. وكذلك سائر المعانى جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا فى كلامهم، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعانى»(١).

وأما اعتراض قطرب ومن وافقه بشأن الأسماء المبنية والأسماء المعربة إعرابًا تقديريًا، وسؤالهم: أين الإعراب هنا الذى يؤدى إلى الإبانة عن المعانى المختلفة؟!

فقد أجاب عن ذلك ابن جنى بقوله:

«فإن قلت: فقد تقول: ضرب يحيى بشرى، فلا تجد هناك إعرابًا فاصلاً، وكذلك نحوه. قيل: إذا اتفق ما هذه سبيله مما يخفى في اللفظ حاله ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيان الإعراب، فإن

(١) الإيضاح فى علل النحو، للزجاجى، ص ٦٩، ٧٠.

كانت هناك دلالة أخرى من قبل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير»(١).

ونخلص من هذا إلى أن الحركة الإعرابية تكون للإبانة عن المعنى، وأنها وسيلة تتسم بالسهولة واليسر، فى مقابل أن السبيل البديل لها - وهو لزوم الرتبة - فيه مشقة وعنت ويؤدى إلى جمود العربية وفقدان مرونتها.

فهل يوافق صاحبنا الشوباشى على حرمان العربية من عناصر أساسية فى التعبير عن المعنى وعامل من عوامل مرونتها؟

إن الأمر لا يتطلب أكثر من الدربة والممارسة، لا أن نهدم باسم الإصلاح. وما يعقلها إلا العالمون.

---

(٢) ابن جنى، «الخصائص» ١ / ٣٥.

الجملة الفعلية :

لقد ترتب على عدم إدراك دور الحركة (الفتحة والضمة والكسرة) وأهميته في العربية، أن استهان صاحبنا بالجملة الفعلية ورأى أنها سبب لبس وغموض، فأراد أن يكتفى بالجملة الاسمية، ونسي أن من سعة التعبير فى العربية اشتمالها على نوعين من الجملة، وكل جملة تخدم أغراضًا بعينها من المعنى، فالتعبير عن الأحداث المهمة والتى ترتبط بزمن يناسبه تقديم الفعل لإظهار الأهمية، وتأتى الجملة الفعلية مناسبة لهذا الغرض، والأمور الثابتة المستقرة التى لا ترتبط بزمن يناسبها التعبير بالجملة الاسمية إخبارًا أو وصفًا.

فقولنا : (العلم نور، والعالم ذكىّ) الأنسب هنا للمعنى أن يأتى فى صورة جملة اسمية، ولو حاولت استبدالها بجملة فعلية لتكلفت كلمات كثيرة، وخرجت

عن أداء معنى الثبات والاستقرار الذى تفيده الجملة الاسمية.

أما قولنا: قرأت الكتاب، ذهبت إلى النادى، يخربون المدينة المقدسة...، فتأتى الجملة الفعلية هنا: أولاً للتعبير عن أهمية الحدث وزمنه، ويلى الحدث فى الأهمية الفاعلُ والمفعول، ويقدم أحدهما على الآخر بحسب الأهمية. وقد يُغْفَل الفاعل بالمرة لعدم أهميته أو للجهل به؛ كما فى قولنا: «قتل السادات»، إن المتحدث هنا يعطى الأهمية للفعل والمفعول به، وقد أغفل ذكر الفاعل لعدم أهميته فى هذا السياق.

وقد يحذف المفعول به لإفادة التعميم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ النجم/٤٣-٤٤.

وعلم المعانى فيه تفصيل يكفى ويشفى لمن أراد أن

يقف على الحكمة من وراء هذا التنوع فى التركيب الاسمى أو الفعلى فى اللغة العربية.

● الصعوبة الثانية كما يراها صاحبنا الشوباشى هى *النقص فى حروف العلة، وفى مقابل ذلك هناك وفرة مشكوك فى ضرورتها فى الحروف الساكنة، وإذا قارنّا العربية بالإنجليزية وجدنا عندنا ثلاثة أحرف علة فى مقابل خمسة لديهم، وعندنا ٢٦ حرفًا ساكنًا فى مقابل ٢١ حرفًا لديهم، على عكس كل لغات العالم الحديثة. ومما يضاعف المشكلة أن كلمة واحدة يمكن أن تشكل جملة كاملة فى العربية، وهذا ليس موجودًا فى غالبية اللغات الأخرى باستثناءات نادرة مثل فعل الأمر. لكن وجود الكلمة - الجملة وضع نحوى عادى فى العربية. فعندما تقول مثلاً: «كتبت» فالفعل يحتوى على الفاعل وبالتالى فقد اكتملت أركان الجملة فى عبارة واحدة. وقد يجد البعض ذلك قوة مضافة للعربية، لكن الممارسة تثبت العكس، فلو*

أخـذنا كلمـة مـثل «قـتلت» نجـد أن لهـا عـشـرة دلالات ملتـبسة على الأقل، وفقًا لنطقـهـا أو لتشـكيلها، فـهناك «قَـتلتُ» و«قَـتلتَ» و«قـتلتِ» و«قُـتلتُ» و«قُـتلتَ» و قُتلتِ» و«قُتِّلتُ» و«قَتَّلتَ» و«قَتَّلتِ».

فـهل من الطبـيـعي أن تكون لكلمـة واحـدة تكـتب بطريقـة واحـدة أكثـر من عشـر دلالات؟ ألا يؤدى هذا إلى فتـح باب اللبس والغـمـوض فى المعنى والحيـرة والتـأويلات المخـتلفـة؟ وربما كـان ذلك أحـد الأسـبـاب وراء الخـلافـات التقليـدية بين أبناء لغة الضاد. فهـم أحيانًا غير قادرين على الاتفـاق على مـعـانـى اللغـة التى يتـحـدثون بهـا فـمـا بـالنا بمضـمون هذه الكلمات وفحواها؟

ولا بد لمن يقـرأ العربيـة أن يتمتع بملكة التكهن ودرجة عـاليـة من القـدرة على الاسـتـنتـاج، بل والرجم بالغـيب، فغالبية الأفعال والكلمات تحتم عدة معان ولا بد للقارئ أن يختار واحداً منها.

● التعقيب :

● أولاً : النقص الغريب فى أحرف العلة :

لم نفهم هنا مقصده بالنقص الغريب فى أحرف العلة، فأحرف العلة فى العربية كافية للوفاء بحاجات المعنى، وأمر صاحبنا الشوباشى غريب فى نماذجه التطويرية الإصلاحية، فحين يجد أمراً موسَّعًا يحاول تضييقه وحين يرى أمراً موجزاً يحاول توسيعه.

فالأمر فى القلة والكثرة – فى أى لغة – بحسب ما يفى بالتعبير عن المعانى والأغراض المختلفة[1].

---

(١) ادعاء الشوباشى نقص حروف العلة فى العربية، سبق أن ادعاه عبد العزيز فهمى الذى قال: إن مصيبة العربية فى كتابتها خلوها من حروف الحركة، وقد أطال وأسهب فى هذا، حتى جعل من هذا سببا من أسباب تأخر الشرقيين، وقد رد عليه عدد من العلماء واللغويين، منهم الشاعر الكبير على الجارم، ومن رده: أن حروف الحركات فى اللغات الأوربية التى أشاد بها عبد العزيز فهمى وبلغ القيمة فى مدبحها مضللة جداً فى كثير من أوضاعها ، ومن الأمثلة التى ذكرها الجارم على ذلك: =

● أما بشأن الحروف الساكنة فى العربية وأنها أكثر من الحروف الساكنة فى الإنجليزية، فلكل لغة أبجديتها الخاصة، ومحاولة الاستغناء عن أى حرف من حروف الأبجدية يمثل انهياراً خطيراً لهذه اللغة، فما قول صاحبنا

= ا- حرف a في اللغة الإنجليزية يؤدى ثلاثة أصوات على الأقل، في مثل: shame, bald, rat, war.

ب- حرف U يؤدى خمسة اصوات فى مثل mule, nut, sure, survey, minute.

ج- حرف o يؤدى صوتين في مثل: for, not.

د- حرفا EA يؤديان اربعة أصوات فى مثل fear, bread, wear, heart.

هـ- حرف i يؤدى صوتين فى مثل: Sir, Sin.

و- حرفا ow يؤديان ثلاثة اصوات في مثل: Route, round, poar.

ز- حرفا EW يؤديان ثلاثة اصوات فى مثل: reward, few, sew.

ح- حرفا OO يؤديان اربعة اصوات فى مثل: blood, poor, nook, floor.

ط- حرفا ie يؤديان ثلاثة اصوات فى مثل: friend, fiend, fiery.

ى- حرف E يؤدى ثلاثة اصوات فى مثل: here, red, fever.

ك- حرفا EI يؤديان ثلاثة اصوات فى مثل: Receive, feign, neither.

[تيسير الكتابة العربية، نصوص مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة١٩٤٤]، رد على الجارم، ص ٥٠.

فى أن الرموز الأبجدية فى كل من اللغتين الصينية واليابانية الحديثتين تبلغ نحواً من ألفى (٢٠٠٠) رمز كتابى Char-acters ؟ .

والجدول الآتى يسجل بعضاً من رموز الكتابة الصينية(١) .

(1) The Cambridge Encyclopedia of language, p. 200.

一	1	匕	31	尢	61	子	91	斤	121	弗	151	缶	181	北	211	亞	241	垂	271
丨	2	冫	32	叉	62	中	92	戶	122	冊	152	至	182	㫃	212	金	242	癸	272
丶	3	刀	33	廾	63	心	93	午	123	皿	153	辛	183	厹	213	來	243	旁	273
丿	4	力	34	丌	64	止	94	牛	124	且	154	衣	184	谷	214	兒	244	寅	274
𠂆	5	勹	35	才	65	丏	95	今	125	目	155	交	185	豆	215	希	245	魚	275
乙	6	乃	36	广	66	氏	96	不	126	㠯	156	亥	186	呂	216	易	246	鳥	276
乙	7	又	37	弋	67	丑	97	木	127	巨	157	系	187	克	217	妥	247	鹿	277
乚	8	乂	38	丮	68	互	98	开	128	四	158	虫	188	叵	218	函	248	豎	278
亅	9	乂	39	丸	69	云	99	水	129	只	159	束	189	囧	219	甾	249	率	279
く	10	卩	40	凡	70	无	100	火	130	民	160	朩	190	酉	220	果	250	禺	280
乛	11	卜	41	乇	71	井	101	犬	131	凸	161	虍	191	卵	221	㡀	251	殷	281
二	12	丩	42	口	72	丹	102	爪	132	出	162	舟	192	臼	222	耑	252	壺	282
丄	13	丁	43	囗	73	丹	103	夭	133	丙	163	自	193	角	223	發	253	象	283
人	14	丂	44	回	74	亢	104	壬	134	朮	164	𠂤	194	囪	224	非	254	舄	284
𠆢	15	厂	45	尸	75	六	105	凶	135	禾	165	耳	195	豸	225	韭	255	焉	285
入	16	三	46	己	76	文	106	日	136	禾	166	臣	196	豕	226	面	256	曾	286
八	17	彡	47	巳	77	方	107	曰	137	矛	167	而	197	釆	227	革	257	爲	287
儿	18	巛	48	弓	78	歹	108	月	138	永	168	而	198	甫	228	眉	258	巢	288
几	19	彳	49	丐	79	勿	109	巴	139	瓜	169	西	199	弟	229	盾	259	業	289
九	20	个	50	幺	80	欠	110	玉	140	戊	170	而	200	華	230	鹵	260	鼠	290
九	21	亼	51	小	81	气	111	主	141	矢	171	西	201	車	231	录	261	蜀	291
十	22	勺	52	亠	82	毛	112	玄	142	夅	172	冎	202	貝	232	癸	262	齊	292
七	23	久	53	巾	83	手	113	白	143	疋	173	肉	203	百	233	泉	263	壽	293
冂	24	夂	54	屮	84	丯	114	内	144	皮	174	臼	204	身	234	香	264	齒	294
冖	25	夊	55	山	85	丰	115	瓦	145	穴	175	甘	205	頁	235	要	265	學	295
凵	26	夕	56	巾	86	斗	116	田	146	它	176	囟	206	辰	236	乖	266	龍	296
𠙴	27	女	57	土	87	卝	117	由	147	宁	177	由	207	長	237	飛	267	龜	297
厶	28	彑	58	工	88	片	118	甲	148	米	178	曲	208	叀	238	馬	268	燕	298
厶	29	大	59	干	89	牙	119	冃	149	羊	179	羽	209	隹	239	禹	269	彝	299
匚	30	夨	60	也	90	予	120	毌	150	臾	180	兆	210	雋	240	華	270	爵	300

ولعل صاحبنا يريد حذف بعض الثنائيات المتقاربة المخرج، المتشابهة فى النطق، مثل ثنائيات: التاء والطاء، والثاء والسين، والدال والضاد ... إلخ.

ولنضرب بعض الأمثلة:

ربت X ربط

ثمر X سمر

دم X ضم.

أرأيت لو أننا استغنينا ببعض هذه الثنائيات عن بعض، كيف نفرق بين هذه الكلمات ؟ وما يترتب على ذلك من تحول وفساد فى الدلالات؟

● وأما عن أن كلمة واحدة فى العربية يمكن أن تشكل جملة كاملة، وهذا غير موجود فى غالبية اللغات الحية، فصاحبنا الشوباشي هنا يريدها لغة طفولية، ويريد أن يحرم العربية من أهم سماتها وخصائصها، أعنى: الإيجاز.

والإيجاز جزء من النظام اللغوى فى العربية، حيث نستغنى عن ذكر ما هو معلوم، وعن ذكر ما لا يضيف جديداً من المعنى.

وليس معنى أن نظامًا لغويًا فى لغة ما لا يوجد فى لغة أخرى أن هذا النظام معيب، وإن رأى البعض صعوبةً فى هذا النظام، فهى صعوبة ناتجة من البشر الذين لا يريدون أن يبذلوا جهداً فى فهم لغتهم وإتقانها وممارستها.

ثم نأتى إلى هذا المثل الذى يجد فيه صاحبنا الشوباشى دليلاً على اللبس فى اللغة العربية الناشئ عن تعدد دلالات الكلمة الواحدة.

وبداية أود أن أظهر خطأ فهم صاحبنا للكلمات التى استشهد بها، فنحن لسنا أمام كلمة واحدة، بل أمام رسم إملائى متشابه لكلمات مختلفة، على نحو ما يظهر من التحليل التالى:

قَتَلْتُ: فعل مبنى للمعلوم + تاء المتكلم (فاعل) .

قَتَلْتَ: فعل مبنى للمعلوم + تاء المخاطب المذكر (فاعل) .

قَتَلْتِ: فعل مبنى للمعلوم + تاء المخاطب المؤنث (فاعل) .

قُتِلْتُ: فعل مبنى للمجهول + تاء المتكلم (نائب فاعل) .

قُتِلْتَ: فعل مبنى للمجهول + تاء المخاطب المذكر (نائب فاعل) .

قُتِلْتِ: فعل مبنى للمجهول+ تاء المخاطب المؤنث (نائب فاعل) .

قَتَلَتْ: فعل مبنى للمعلوم+ تاء التأنيث .

قُتِّلَتْ: فعل مبنى للمجهول مزيد بالتضعيف+ تاء التأنيث .

قَتَّلْتَ: فعل مبنى للمعلوم مزيد بالتضعيف + تاء المخاطب المذكر (فاعل) .

قَتَّلْتِ: فعل مبنى للمعلوم مزيد بالتضعيف + تاء المخاطب المؤنث (فاعل).

• ونجمل ملاحظاتنا على هذا المثال فيما يلى:

١- هذه ليست كلمة واحدة، بل عشر كلمات فى حدود الأمثلة التى ذكرها، وتنوع المعانى جاء من إسناد الفعل إلى الضمائر المختلفة، ومن الصيغة الصرفية للفعل، فبعضها مجرد وبعضها مزيد بالتضعيف. كما أن بعضها مبنى للمعلوم وبعضها مبنى للمجهول، وهذا يغير من المعنى؛ لأننا هنا أمام ثلاثة معانٍ:

أ- المعنى المعجمى للفعل (قتل).

ب- المعنى الصرفى لصيغة الفعل التى يحددها التشكيل الداخلى للفعل (ضبط البنية).

جـ- المعنى التركيبى الناتج من إسناد الفعل إلى ضمائر مختلفة.

جـ – المعنى التركيبى الناتج من إسناد الفعل إلى ضمائر مختلفة.

٢– التطابق أو التقارب هنا فى الرسم الإملائى فقط، وليس فى النطق ولا فى البناء التركيبى ولا الصرفى، ولا فى الدلالة. ومرد خطئه هنا إلى عدم إدراكه أن الحركة جزء من تكوين الكلمة، وعنصر من عناصر التعبير عن المعنى.

أما عن تنوع الدلالات للكلمة الواحدة – فعلاً كانت أو اسمًا – فهو جارٍ فى اللغات المختلفة، وتعدد المعنى للكلمة الواحدة يكون بفعل السياق بنوعيه: اللغوى، وغير اللغوى (الموقف المصاحب للحدث الكلامى).

ولنضرب مثالاً من اللغة الإنجليزية بكلمة «Get» التى تعنى: ينال – يفوز – يستولى على – يصاب (بمرض)– يلد – يجلب – يُخْرِج – يجعل – يهيئ – يقبض على – يتغلب على – يحيِّر – يثير – ينتقم من – يصيب –

يصاب - يتلقّى على سبيل العقاب - يستظهر - يتوصل إلى نتيجة عن طريق الحساب - يسمع - يفهم - يُقنع - يملك - يجب - يتصل بـ - يصل - يبلغ حالة ما - يكسب ثروة - يصبح - ينصرف أو يرحل فى الحال. هذا ولم نذكر معانى الفعل (get) مركبًا مع حروف الجر، التى تبلغ أكثر من ثمانين معنًى مختلفًا[١].

والسياق هو الذى يحدد المعنى، حيث إن للكلمة عدة استعمالات سياقية، وكل سياق يظهر أو يحدد أحد هذه المعانى أو وجهًا منها، وكما يقول الفيلسوف الألمانى فتجنشتين Wittgenstein :

« معنى الكلمة يكمن فى استعمالها فى اللغة »، وهو يقول أيضًا : « لا تسأل عن المعنى، ولكن سل عن الاستعمال[٢]. والسياق نوعان : لغوى، وغير لغوى :

السياق اللغوى Vebral Context :

وفيه تراعى القيمة الدلالية المستوحاة من عناصر لغوية، فالكلمة يتحدد معناها من خلال علاقاتها مع الكلمات الأخرى فى النظم، وهذا لا يشتمل على الجملة وحدها، بل ينتظم الفقرة أو الصفحة أو الفصل أو الباب أو الكتاب كله.

والمثال على ذلك: الفعل «أكل» ومعانيه المتعددة من خلال السياقات القرآنية التالية(٢):

١- ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ الفرقان/٧.
فالأكل هنا بمعنى التغذية.

٢- ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ يوسف/١٣. فالأكل هنا بمعنى الافتراس.

٣- ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ هود/٦٤. فالأكل هنا بمعنى الرعى.

٤- ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ الحجرات/ ١٢. فالأكل هنا بمعنى الغيبة.

٥- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ النساء/ ١٠، فالأكل هنا بمعنى الاختلاس.

٦- ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ آل عمران/ ١٨٣، فالأكل هنا بمعنى الإحراق.

كذلك يمكن أن نمثل للسياق اللغوى بكلمة «عين» حين ترد فى سياقات لغوية متنوعة، وكل سياق يظهر ويحدد وجهًا من معانيها:

عين الماء : البئر.

عين الدولة : الجاسوس.

عليه العين : الاهتمام.

تأجير العين : المكان.

---

(١) المورد (٢٠٠٤)، get.

عينه فيها : الحسد.

عينه هاتطلع : الغيظ والضيق.

عينى فى عينك : المواجهة.

عينى عينَك : بوضوح.

وهكذا فقد تعددت المعانى لكلمة «عين» وحدد كل سياق أحد هذه المعانى.

ومن السياق اللغوى ما يسمى «المصاحبات اللفظية» Collection، ويعرفه Firth بانه:

«الارتباط الاعتيادى لكلمة ما فى لغة ما، بكلمات أخرى معينة»، أو «استعمال وحدتين معجميتين منفصلتين، يأتى استعمالهما عادة مرتبطتين الواحدة بالأخرى»، ومن أمثلة ذلك كلمة «مجلس»:

- مجلس علم. - مجلس الشعب.
- مجلس الكلية. - مجلس صلح.

- مجلس الجامعة.   - مجلس الإدارة

- مجلس تأديب.   - مجلس الأمن.

ومن هنا تظهر أهمية السياق اللغوى ودوره فى تحديد المعنى وفهمه.

السياق غير اللغوى Context of Situation :

وهو يمثل الظروف والملابسات والمواقف التى تم فيها الحدث اللغوى وتتصل به، وهو ما أطلق عليه الدكتور بشر: «المسرح اللغوى»، ويسميه Firth: «سياق الحال» ويعرفه بأنه: «جملة العناصر المكونة للموقف الكلامى، ومن هذه العناصر شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما الثقافى، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع - إن وجدوا - وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوى، والعوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة والسلوك اللغوى لمن يشارك فى الموقف الكلامى، كحالة

الكلامي، كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام».

ومن هنا نلمح أن السياق غير اللغوى يضم سياقات متنوعة مثل: السياق العاطفى، والسياق الثقافى، وسياق الموقف، ولكل واحد منها دور يسهم به في تحديد المعنى، فدرجة الانفعال قوةً وضعفًا في الحديث تؤثر في تحديد المعنى، فقوة الانفعال تؤكد مثلاً دلالة «الغضب» أو دلالة «الفرح الشديد» أو دلالة «الحزن»، كذلك المحيط الثقافى لكلمةٍ ما يؤثر في تحديد المعنى، فدلالة كلمة «جذر» عند الفلاح تختلف عن دلالتها عند اللغوى، وهي في مجال الرياضيات بمعنى ثالث يختلف عن معناها عند الفلاح وعند اللغوى، وكلمة «التعدّى» عند أهل اللغة لها دلالة تختلف عن دلالتها عند رجال الشرطة والقضاء.

كذلك أطراف الموقف الكلامي تؤثر في تحديد المعنى، فسؤال الأستاذ تلميذه للاختبار والتقييم، أما سؤال

التلميذ أستاذه فهو للاستفادة وزيادة العلم أو إزالة الجهل.

أيضًا الموقف الذى يقع فيه الحدث الكلامى له اعتبار مهم فى تحديد المعنى، فعبارة «السلام عليكم» تحية إسلامية، ولكن هذه العبارة قد تتحول إلى معنى المغاضبة والمقاطعة حين يحتدّ النقاش بين شخصين وييأس أحدهما من إقناع صاحبه، فيذهب مغاضبًا وهو يقول: «السلام عليكم»، فالمقام هنا يصرف معناها من كونها تحية إسلامية إلى دلالة المقاطعة والغضب.

كذلك عبارة «حمداً لله على السلامة» تقال لمن قَدِمَ من سفر، بدلالة الترحيب والحفاوة، لكن العبارة نفسها تتحول إلى دلالة المعاتبة حين تصدر من رئيس لموظف غاب أو تأخر عن عمله.

ومن المشاكل التى يراها صاحبنا الشوباشى استخدام الأرقام فى العربية، فيقول:

ومن المشاكل التي يراها صاحبنا الشوباشي استخدام الأرقام في العربية، فيقول:

«*والقواعد الخاصة باستخدام الأرقام مثال للتعقيد الذي لا داعي له. لماذا لا نقول: تسع رجال وتسع نساء، بدلاً من تسعة رجال وتسع نساء؟ لماذا لا نوحّد الأرقام حتى نوفّر على أنفسنا تعقيدات لم تعد تناسب العصر؟*»

والجواب أن اللغة العربية تميز بين المذكر والمؤنث سواء في العدد أو في غيره، وتسير العربية على عنصر المخالفة للتمييز بين المؤنث والمذكر في العدد، وليس في هذا تعقيد، ما دام هناك نظام مطّرد فليس هناك تعقيد يا صاحبي.. التعقيد يتأتى حين يضطرب النظام. والتعقيد الذي يقصده إنما مرده إلى البشر الذين لا يريدون أن يبذلوا جهداً يسيراً في ممارسة لغتهم.

● ثم ينتقل بنا المؤلف إلى مثال يضرب للتعبير عن

بلاغة العربية ودقتها، لكن صاحبنا الشوباشي يراه دليلاً على التعقيد والغموض، والمثال هو: الفرق بين:

إنِّى قاتلٌ ابنَك: أى سأقتله.

إنِّى قاتلُ ابنِك: أى قتلته.

ويتساءل: *لم هذا الغموض والالتباس ؟*

ونجيب: بأن الالتباس والغموض فى ذهن صاحبنا؛ لأنه أغفل دور الحركات فى العربية، واقتصر إدراكه على الحروف الصامتة، فلم يستطع أن يفرق بين الضمة والتنوين فى: (قاتلُ)، (قاتلٌ).

وقد سبق أن وضحنا دور الحركة الإعرابية كعنصر من عناصر المعنى فى اللغة العربية.

● ثم يأتى المؤلف إلى ما يراه دليلاً على صعوبة العربية وتعقيدها، وهو المثنى، فيقول:

« ومن أوضح الأدلة على معاندة قواعد العربية لسنة التطور: تربُّع المثنى على أصول النحو العربى حتى بداية القرن الحادى والعشرين، فالمثنى بالنسبة لكل لغات العالم أصبح كالديناصور الذى انقرض من على وجه الأرض، وغالبية اللغات الحية المتداولة اليوم لم يكن بها مثنى أصلاً، فهذه الصيغة كانت شائعة فى اللغات السامية القديمة، وقد اختفى مع اختفاء معظمها وألغى بصيغته القديمة فى اللغات الباقية حتى اليوم مع عمليات التطوير التى قاموا بها ».

● شيء يدعو إلى القلق من تكرار صاحبنا الشوباشى لكلمة « سُنَّة التطور » فى غير موضعها.

فهو يرى أن وجود المثنى فى العربية معاند لسنة التطور، ونحن نسأل صاحبنا:

أى تطور فى حذف المثنى؟ ثم ألا يعبر المثنى عن واقع

موجود بالفعل ؟ وهل المثنى لا يسير على قاعدة مطردة حتى سبب لك خللاً وتعقيداً وصعوبة؟ ثم ألا يمثل المثنى وجهًا من وجوه دقة التعبير فى اللغة؟ وهل الإنجليزية – مثلاً – لا تعبر عن المثنى بطريقتها، كما فى: - Between) Both).

وذلك لأن معنى التثنية ماثل فى واقع الأشياء. ولكل لغة نظامها، فليس معنى غياب المثنى فى اللغات الأخرى أن يغيب عن العربية ، بل إن غيابه عن العربية سيمثل إشكالية خطيرة فى التعامل مع نصوص القرآن والسنة والتراث، ليس فى ألفاظ التثنية وعلاماتها فحسب، بل أيضًا فى توظيف المثنى لأغراض تخدم المعنى على نحو البيت الذى ساقه:

يا ساقِيىَّ أخمرٌ فى كؤوسكما
أم فى كؤوسكما همٌّ وتسهيد

ثم نسأل صاحبنا: هل استقرار العربية فى قواعدها الأساسية تراه تحنيطًا للغة وضد التطور؟

العربية لغة مستقرة، وهذه مزية وخصوصية لها بفضل القرآن الكريم، ومع ذلك فهى مرنة تواكب الحياة فتتغير وتتطور، وسوف نخصص مبحثًا لهذا المعنى تحت عنوان: كيف تتطور العربية وهى مستقرة؟

● ثم قول صاحبنا: «*لقد أدرك الجميع أنه لا فائدة من وجود المثنى*».

من هذا (الجميع) الذى تقصده؟ فنحنا لسنا منهم، كما أن الأعم الأغلب ليسوا معك: علماء وعامّة، والذى أدركناه عكس رؤيتك، وضد ما أدركته.

ثم فى اتجاهك ضد حقائق علم اللغة تقول: «*وقد تخلصت اللهجات العربية من المثنى تلقائيًّا، وأصبح الاثنان جمعًا كما يريد المنطق*».

يا صاحبى، لم تتخلص اللهجات العربية من المثنى كما قلت، ففى عاميتنا المصرية نقول:

- ما لقوش فى الورد عيب قالوا: أحمر الخدين.
- القفة أم ودنين يشيلوها اتنين.
- اللى يبص لى بعين أبصله باتنين.
- اللى يراعينى قراط أراعيه قراطين.
- زيادة الخير خيرين.
- الراجل دا بوشّين.

ثم إن اللغة ليست منطقًا، اللغة استعمال، ولو كانت اللغة منطقًا لأصبح الناس فى كل يوم فى وضع جديد.

- ومن المشكلات التى تنغص صاحبنا وتعذبه على حسب رؤيته: جمع المؤنث فى العربية، ويتساءل: *لماذا عزل الرجال عن النساء؟ ألسن بشرًا مثلهن مثل الرجال، ويرى المؤلف أن المؤنث من أعقد التركيبات التى لا لزوم لها لفهم المعنى !!*

والجواب عن هذه التخاريف، أن اللغة العربية أمينة فى التعبير عن واقع الأشياء والأمور، فالذكورة والأنوثة واقع موجود، بل ونحتاج فى تحديد الهوية إلى التمييز بينهما، فهذا ذكر وهذه أنثى. وللأنثى خصائص وامتيازات لم يحظ بها رجل قط كامتياز الأمومة والولادة ... إلخ.

ونحن لا نعزل الرجال عن النساء، فالنساء شقائق الرجال، ولكن لا نخلط بينهما، وبخاصة أن للمرأة أحكامًا شرعية فى ديننا تخصها دون الرجل، وللرجل أحكام شرعية تخصه دون المرأة.

ووجود المؤنث فى العربية مزية لهذه اللغة. ولكل لغة نظامها اللغوى وقواعدها المطردة.

وادعاء صاحبنا أن العامية المصرية لا تفرق بين المذكر والمؤنث غير صحيح، فعلى مستوى المفرد المؤنث نقول فى العامية المصرية:

قدم لها هدية، وأكرمْها، العين عليها، والبت الحلوة، الأمورة، السنيورة.

وعلى مستوى جمع المؤنث نقول في العامية أيضًا:

العاملات، الراقصات، الممثلات، المذيعات، الفنانات، مرَّات، رحلات، حجرات، مغامرات، مسلسلات، تمثيليات ... إلخ.

وهذه عامية فصيحة وشائعة في لغتنا الدارجة، فما قولك يا صاحبي ؟

وفي هذا شاهد قويّ ودليل على خطئك في قراءة الواقع اللغوي وتشخيصه.

● ثم ينتقل بنا المؤلف إلى قضية أخرى من القضايا التي تؤرقه، وهي ثراء اللغة العربية بالمفردات، وسؤاله: *هل يعكس هذا العدد المهول من الكلمات العربية دقة وقدرة تعبيرية ؟!*

وينتـهى إلى قـوله: «*أما عن الدقة فـهذا أمر مشكوك فيه، والعلماء الغربيون تفوقوا عليهم، وأصبحت العربية تلهث وراء الإنجليزية لمواكبة التطور العلمى، والتعبير عنه باللغة الدقيقة (الإنجليزية)*».

ونجيب على هذا بأن ثراء العربية وغناها بالمفردات إنما هو مزية فى هذه اللغة، تتيح لمستخدم اللغة بدائل عديدة ومساحة أوسع من الاختيارات، وقد اصطفى القرآن الكريم من هذه الثروة اللغوية أيسر الألفاظ وأسهلها صوتيًّا وصرفيًّا وتركيبيًّا، لكن فى فترات الضعف بسبب تراجع مستخدم اللغة، قد يسىء استخدام الألفاظ وقد يخطئ فيها ولا يلتزم الدقة فى التعبير، وكل هذه أمور ترجع إلى مستخدم اللغة لا إلى اللغة.

● وأما عن قولك *إن العربية اليوم أصبحت تلهث وراء الإنجليزية لمواكبة التطور العلمى والتعبير عنه باللغة الدقيقة*، فهذا نقص فى إدراكك للواقع وفهمك له، فالحق والواقع أن

العرب هم الذين يلهثون وليست اللغة العربية .

● وأمّا عن قضية الترادف، فكيف غاب عنك أن العرب هم الذين أسسوا البدايات الأولى لنظرية المجالات الدلالية، وكذا نظرية التحليل التكوينى، ونظرية السياق، وهذه النظريات الثلاث عالجت الألفاظ متقاربة المعنى، التى يطلق عليها : الألفاظ المترادفة. وبإمكانك الرجوع إلى :

● معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى.

● الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى.

ومن الدراسات الحديثة :

● أصول تراثية فى علم اللغة الحديث للدكتور كريم حسام الدين.

ونخلص إلى أن سعة قاموس العربية ليس عيبًا فيها، ولكنها مزية تعطيها سعة فى التعبير، والترادف فى العربية

ولكنها مزية تعطيها سعة فى التعبير، والترادف فى العربية إنما هو لون من إتاحة البدائل الممكنة فى التعبير بالألفاظ متقاربة المعنى، ونشأة اللبس والغموض من مستعمل اللغة، وليس فى ذات اللغة.

ثم نأتى فى النهاية إلى قضية أثارها، وهى تعدد معانى اللفظ الواحد، وفات صاحبنا هنا المعانى المتعددة للكلمة الواحدة بحسب السياقات التى ترد فيها، وكما قال الفيلسوف الألمانى فتجنشتين:

«لا تسألنى عن معنى الكلمة، ولكن أخبرنى عن السياق الذى وردت فيه أخبرك عن معناها»(١).

وقد سبق توضيح أثر السياق فى تعدد معانى الكلمة. والعربية ليست بدعًا فى هذا، إنها سُنَّة جارية فى اللغات.

وفى نهاية هذا الفصل - وهو أخطر فصول الكتاب -

(1) Semantics, Theories of meaning in generative grammer, by: John Lions, P. 20.

يظهر واضحًا لنا أن مقترحات الشوباشى الإصلاحية ضد حقائق علم اللغة الحديث، وأنها لون من الهدم والإفساد للغة العربية، وهى مقترحات ميتة؛ لأنه يحاول أن يفرض على اللغة العربية منطقًا صوريًّا غير لغوى، أو منطق لغات أخرى لها نظامها المختلف عن النظام اللغوى للعربية، بل لا تنتمى إلى أسرة اللغات السامية، أى ليست لها قرابة مع العربية، يضاف إلى هذا أن كل ما أسماه بالتعقيد والجمود والتحجر فى اللغة إنما هى عيوب سلوكية فكرية.

فهل أدركت - يا صاحبى - أن الأزمة ليست فى اللغة، لكنها أزمة فى استعمال اللغة ووسائل تعليمها؟

وهكذا يتأكد لنا أن العيب فينا وليس فى فصحانا. وما يعقلها إلا العالمون !

الاستثناء العربى

يتعرض المؤلف فى هذا الفصل لقضية اللغة وموقعها من التكوين الثقافي للشعوب، ويبدأ هذا الفصل بفقرة اقتبسها من كتاب « شخصية مصر » للدكتور جمال حمدان، تقول :

« وإذا كان لا بد من مقياس مدرَّج للعروبة، فليس جنسيًّا هو، ليس بكمية الدم العربى التى أضيفت، ولكنه كمية اللسان العربى التى استعيرت . بمعنى آخر : مقياس العروبة – مثلما هو أساسها– اللغة لا الجنس » .

وهذه لفتة مشرقة من جمال حمدان، تلتقى مع كلمات النبى العربى ﷺ ، حينما عيَّر رجلٌ بعض الصحابة الكرام بأنهم أعاجم، وهم سلمان الفارسى، وصهيب

الرومي، وبلال الحبشي رضي الله عنهم، فما كان منه ﷺ إلا أن قال قولته الخالدة: «ليست العربية لأحدكم من أبٍ ولا أمٍّ، ولكنها اللسان، من تكلم العربية فهو عربي»(١).

إن النبي ﷺ هنا يرسي قاعدة القومية العربية، فلا يربطها بالجنس ولا بلون البشرة، ولا بغير ذلك من الدعاوى العنصرية التي تفرِّق بين بني آدم.. إن العروبة هي اللسان العربي، وليست وراثة، وبقدر ما نتحدث بالعربية نقترب من جذورنا وقوميتنا، وبقدر ما نهجر العربية نبتعد عن تلك الجذور وتذوب قوميتنا.

إنه نداء إنساني لجمع البشر على أسس ثقافية لا عِرْقية ولا عنصرية، فماذا يرى صاحبنا الشوباشي من عيبٍ في التحرر من النزعات العنصرية والنعرات العرقية.

ثم إن النبي الكريم ﷺ لم يَدْعُ يومًا إلى نبذ اللغات

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، ٦/ ٢٠٠.

الأخرى، بل على العكس من ذلك، اعتبر الإسلام أن تعدد اللغات آية من آيات الله، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ الروم/٢٢.

وإذا كانت كل الشعوب تعتز بلغاتها وتعمل على نشرها وتنميتها، فلماذا نحرم العربية من الوجود على خريطة العالم المعاصر؟ ولماذا نقبل أن تنزوى لغة استمرت خمسة عشر قرنًا تعبِّر عن حاجات أهلها دونما عجز أو انهيار، أمام لهجات محلية ليست لها قواعد مقننة، ولا تستطيع الوفاء بحاجات مستعملها؟

ألا تتناقض هذه الدعوة مع ما أثبته المؤلف من سعى الغرب بزعامة أمريكا إلى «*إعادة تشكيل العقل العربى ليتوافق مع المنطق الغربى ويخضع لرغبات إسرائيل.. فيما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير*»؟

إن مـا تدعـو إليـه يا صـاحبى من إلغـاء بعض القـواعـد العـربيـة، ومـا تـسـمـيـه بتطوير العـربيـة يجنح إلى الـهـدم والتـدمـيـر، لا إلى الإصلاح والتطوير، والمثال الذى ضـربتـه لضرورة الامتثال لسنن التطور وهو قولك: «*فهل يعقل مثلاً أن يذهب عربى إلى طبيب غربى فيعترض المريض قائلا: هذا الدواء ينفع أبناء بلدك، لكنه لا ينفعنى لأنه غربى؟!*».

أقـول: إن هذا المثل لا ينطبق على قـضـيـتنا؛ فـالأمـر مختلف، هذا شىء **بيولوجي** يشترك فيه البشر جميعًا، بل وحيوانات التجارب، أما اللغة **فهى** ظاهرة **ثقافية** أى ترتبط بالجماعة البشرية التى تتكلمها. اللغة هى وعاء الحضارة، والهويَّة الثقافية للأمَّة، وهى المرآة التى تعكس المستوى الحضارى والفكرى لأهلها.

وليس صحيحًا - كما تقول - أن «*كل لغات العالم*

قابلة للتطوير والإصلاح، إلا لغتنا العربية ».

لم يقل أحد هذا .. بل إن الواقع يثبت أن العربية قد تطورت، وقارن بين شعر صلاح عبد الصبور والمتنبى مثلاً.

إن التطور لا يأتى بإرادة إنسان فرد، بل هو سُنَّة من سُنَن الله الجارية، واللغة - فى رحلة تطورها - لا تستشير أحداً، بل هى ماضية فى طريقها، غاية الأمر أن قدر التطور فيها إنما يكون على قدر تطور أهلها وحضارتهم.

ثم يضعنا المؤلف أمام خيارين :

- إمَّا ان نكون مصريين نقطع انفسنا عن الجسد العربى فنتجه إلى اللهجة المصرية ونعطيها الأولوية.

- وإمَّا ان نكون مقتنعين بأن مصر جزء من ثقافة أوسع ومن عالم أكبر هو العالم العربى، فيتعين علينا - فى هذه الحالة - أن نتمسك باللغة التى تربطنا بجذورنا التاريخية، كما تربطنا بامتدادنا الجغرافى.

ونحن مع خيار المؤلف أننا جزء من عالمنا العربى وندرك

المخاطر التي تواجهه، ونؤمن بضرورة الإصلاح، لكن من منظور يختلف عن منظور المؤلف؛ لأن النماذج التى عرضها هى هدم للغة وإفساد لها، والتطوير - كما نراه - إنما هو تطوير لعقل الإنسان العربى، وتطوير لوسائل تعليم هذه اللغة لتيسيرها ووصلها بالعلم، ودعمها فى وسائل الإعلام المختلفة، وتمكين المجامع اللغوية من نشر إنتاجها ووصله بالإعلام والتربية والتعليم، ودعمها فى مسيرة المعجم العربى للمستويات المختلفة: معجم للأطفال، ومعجم للمرحلة الابتدائية، ومعجم للمرحلة الثانوية، ومعجم لعامة المثقفين، ومعجمات لكل شريحة من شرائح المجتمع، مع التركيز على عنصر الممارسة والتطبيق فى تدريس اللغة، بدلاً من التلقين وحفظ القواعد واستظهارها، وتمهير مدرسى اللغة العربية ليكونوا مواكبين للعصر، ورفع مستواهم المادى، والاستفادة بإنجازات علم اللغة الحديثة فى الدراسات التقابلية التى لها أهداف تعليمية فى تيسير تعليم اللغة العربية كلغة ثانية، وإنشاء

المعجمات الخاصة بذلك، وأن نصطفى من اللغة أيسرها وأسهلها وما هو متفق عليه، وندع ما سوى ذلك لقاعات الدرس والبحث الأكاديمى، وأن ندعم الجهود التى تتجه إلى تفصيح العامية وتقريبها من مستوى الفصحى كى نقلل المسافة الفارقة بين الفصحى والعامية.

وهذا ما لا ينجزه اللغوى وحده، بل لا بد من صاحب القرار فى موقعه، ولا بد ممن يملك التمويل لإنجاز هذه المشروعات، لا بد أن تتكاتف الجهود لتحقيق هذه الطموحات نحو تطوير العربية.

وليت صاحبنا الشوباشى يضع يده فى أيدينا لإنجاز هذه الطموحات إذا أردنا التطوير بحق. وما يعقلها إلا العالمون!

خلاصة الملاحظات

قبل أن أبدأ فى هذه الخلاصة أود أن أكشف عن سوء فهم وقع فيه صاحبنا الشوباشى حين أبدى أثناء مناقشته فى برنامج المنتدى بالقناة الثقافية أنه اجتهد، وللمجتهد المصيب أجران، وللمخطئ أجر واحد. ثم قال: وأرى أن لى أجرين على هذا العمل.

ونتساءل: هل خفى على صاحبنا أن المجتهد ينبغى أن تتوفر فيه شروط الاجتهاد؟ فكيف تجتهد وقد صرحت بلسانك بأنك لست عالم لغة، ولكنك مثقف محب للغته، فكان الأولى لك أن تطرح المشكلة على علمائها؛ كى تصل إلى الحلول الصحيحة من أقصر طريق بدلاً من هذه العشوائية، وهذا التخبط الذى يرجع بنا إلى الوراء

طويلاً، بعد أن قطع علماء اللغة شوطًا كبيرًا فى إنجازات عظيمة، والمشكلة الآن فى تمكين علماء اللغة لتفعيل مشروعاتهم الإصلاحية.

وهكذا يصنع العقلاء فى كل مجال، وبخاصة أننا فى عالم يحترم التخصص والكفاءة.

وهل يجتهد إلا من كان مؤهلاً للاجتهاد ؟!

وإليك خلاصة الملاحظات التى عُرِضت تفصيلاً فى مباحث الكتاب:

● جاء عنوان الكتاب هجائيًّا، يتطاول على رمز من أبرز رموز العربية، على الرغم من أن المؤلف لم يستطع أن يخرج - فى كتابه - عن عباءة سيبويه!!

● يذكر المؤلف نتائج بدون مقدمات، ويصدر أحكامًا بدون أدلة، كما افتقر الكتاب إلى التوثيق فى كل ما ذكر

من الإحصاءات والمعلومات.

● والكتاب - في الأعم الأغلب - قراءة خاطئة للواقع اللغوى، حيث يعمم أحكامًا كثيرة مثل: «*لا يوجد عربى واحد يتكلم بالعربية*» ... إلخ.

● ومن أوهام المؤلف وأخطائه أنه يكيل تهمًا لا وجود لها في حياتنا اللغوية، فيقول مثلاً: «*إن قواعد العربية لم تعد تواكب زماننا*» ... إلخ.

● ومن قراءاته الخاطئة أنه حوَّل الاستثناء إلى قاعدة، ولم يتحرَّ الدقة فألصق بأئمة مشهود لهم كالإمام أبى حنيفة تهمة عدم القدرة على التحدث بعربية سليمة مائة في المائة.

● افتقر الكتاب إلى التماسك والانسجام النصِّى، وهذا التفكك والتناقض مرآة لتناقض فكر المؤلف، فالأفكار غير ناضجة في عقله، فتراه يذكر الشيء وضده، ولا يربط بين

ما يذكره وبين قضيته الأساسية، فخرج الكتاب فى صورة هجوم عشوائى يفتقر إلى المنهجية العلمية، فى ثمانية مباحث يعرض فيها هجومه الضارى على العربية وأهلها لإقناعنا بفكره، وجاء فى المبحث التاسع يعرض نماذج للتطوير، فإذا بها نماذج للهدم والإفساد.

وإن كنا نتفق مع المؤلف فى الرغبة فى الإصلاح، فإننا - بقدر اتفاقنا معه فى ذلك - نرفض نموذج الهدم والإفساد الذى قدَّمه.

• يجعل المؤلف اللغة العربية سببًا فى تخلف العرب الحضارى.

• يحاول المؤلف أن يفرض على العربية قوانين المنطق العقلى، أو قوانين لغات أخرى !!

• التخلِّى عن روح الحوار فى الكتاب، وعدم ترك مساحة للرأى الآخر، فعند المؤلف تُهَم سابقة التجهيز لمن

سيرفضون هذا الكتاب أو يعارضون فكره، حيث يصفهم بالجمود والتحجر، حتى إنه وهو يوجه رسالة إلى **حُـرَّاس الضـاد** ينال منهم بصورة تدعو إلى الدهشة والاستغراب، فيقول:

«*ولو التزمنا بكلام حراس الماضى لظلت مجتمعاتنا العربية فى حالة من التخلف المرعب... لو استمعنا – على مر العصور – إلى أنصار القديم لكانت حياتنا اليوم جحيمًا لا يطاق*».

ثم يقول: «*يقف حراس الماضى ضد كل فكر يُعلِى قيم الحرية والديمقراطية وتحرير المرأة وسعادة الإنسان*».

- الاستشهاد الخاطئ من المؤلف، فكثيراً ما يأتى بنصوص تبرهن على عكس ما يريد إثباته، كالنصوص التى ساقها عن ابن قتيبة والمتنبى وغيرهما.

- استبحر المؤلف فى وصف الداء العربى من ناحية

اللغة، والمحنة التى يعيشها العرب، لكنه لم يستطع أن يصعد خطوة فى تقديم حلول عملية غير تقليدية، والداء معروف للجميع؛ لأن الناس تعيشه ألمًا وحيرة، والحاجة إلى الإصلاح مطلب للجميع أيضًا، لكن كيف الخروج والإصلاح ؟ هذه هى المواجهة.

وهكذا استفرغ الكاتب جهده فى الإجابة عن السؤال: ماذا يحدث؟ ما المحنة؟ وعجز كل العجز عن كيف؟ فلم يشرح لنا كيفية الخروج من هذه المحنة.

● الدعاوى التى ألصقها المؤلف بالعربية الفصحى، وتحامله عليها، خرج فيها عن المنهج العلمى، إلى أسلوب الانفعال والتهويل والمبالغة، والعلم حقائق يستدل عليها بالاستقراء المنهجى الصحيح، وليس بالملاحظات الشخصية السطحية والعابرة.

● جاء الكتاب بأسلوبه الذى وصفناه معاكسًا للمنهج

العلمى، وضد حقائق علم اللغة الحديث.

● الضجة التى أثارها هذا الكتاب ليست لقيمته العلمية، فالكتاب لم يقدم لنا جديداً ولا مشروعًا حضاريًّا، وما نادى به من إصلاح - دعا إليه المصلحون الحقيقيون العلماء الذين يملكون أدوات الإصلاح: رفاعة الطهطاوى، إبراهيم مصطفى، شوقى ضيف، كمال بشر، أحمد مختار عمر وغيرهم.

وإنما الضجة كانت بسبب نيله من قمة تمثل أساساً من أسس العربية، وسقوط هذه القمة يعنى انهيار ما بعده، كما أن مقترحاته الميتة التى عرضها فى الفصل التاسع كانت هدَّامة للغةٍ لها ما لها فى قلوب كل المسلمين من الإعزاز؛ لارتباطها بالقرآن الكريم.

القناة الثقافية

برنامج المنتدى

حلقة خاصة عن كتاب :

لتحيا اللغة العربية .. يسقط سيبويه

إعداد / أ. ياسر حسن تقديم / أ. منى سلمان

الثلاثاء ٢٨ / ٧ / ٢٠٠٤

أطراف الحوار:

أ / **شريف الشوباشي** مؤلف الكتاب

د . عبد الصبور شاهين

د . محمد داود

تقدمة الحلقة :

مشاهدى الكرام، أهلاً بكم، هذه الحلقة على الهواء مباشرة على المنتدى.

كـواحـدة من أبناء هذا اللسـان العـربى، لا أسـتطيع أن أتخيل اللغة العربية بدون امرئ القيس أو عنترة، وقبل كل ذلك، وفوق كل ذلك المعجزة اللغوية الكبرى للعربية وهى القرآن الكريم.

هل نزول القـرآن بلغـة العرب يعنى أن قـداسـة الكـتاب المقدس أصبحت تنسحب على هذه اللغة؟!

إلى أى مدى يمكننا أن نعيد بناء وتركيب هذه اللغة؟

إلى أى مـدى تَمُتُّ اللغـة العـربيـة التى نتـحدثهـا الآن بصلة إلى اللغة التى كان يتحدثها العرب القدماء؟

كتاب صدر حديثًا فى القاهرة وهو كتاب: لتحيا اللغة العـربيـة.. يسـقط سـيبـويه، لمؤلفـه الأسـتـاذ/ شـريف الشوباشى.

هذا الكتـاب أثار زوبعة لم تخـمـد حتى الآن، البـعض اتهم شريف الشوباشى بعدم التخصص، وما إلى ذلك من اتهامات كثيرة نتعرض لها.

فى حين رأى البعض الآخر أن شريف الشوباشى مجرد ضـحيـة لأنه اقـتنع بمقـولة العـمـيـد طه حـسين بأن «اللغـة

العربية ملك لنا، ولنا أن نضيف إليها».

ما هى حدود هذه الملكية؟ ومن الذى يحق له أن يتعرض إلى هذه اللغة بالبحث والمناقشة؟

هل تحولت اللغة العربية إلى لغة كهنوتية ؟!

هل حقيقة أن شريف الشوباشى الذى أثار الكثير من الجدل فى القاهرة وفى العالم العربى - نستطيع أن نقول إنه استطاع أن يلقى حجراً فى بحيرة كانت تستحق أن تتحرك؟

اسمحوا لى أن أرحب بحضراتكم لنطرح هذه الأسئلة على استوديو الهواء، اسمحوا لى أن أرحب بالأستاذ/شريف الشوباشى، الكاتب والباحث ومؤلف كتاب: «لتحيا اللغة العربية .. يسقط سيبويه».

كما أرحب بالأستاذ الدكتور/ عبد الصبور شاهين الكاتب المعروف، والأستاذ بكلية دار العلوم، كما أرحب بالأستاذ الدكتور/ محمد داود، أستاذ الدراسات اللغوية بجامعة قناة السويس.

***

المذيعة :

الأستاذ الشوباشى جاءته الجرأة عندما قال إن اللغة العربية هى المسئولة عن تخلفنا أو عن تخلف العالم العربى حسب تعبيره الدقيق، وإن تحجر البعض فى تناول اللغة هو من أسباب عملية تعطيل النهضة.

لكن هل كان من الإنصاف تحميل اللغة العربية عدداً كبيراً من مشكلات العالم العربى، مثل: انفصال لغة الحديث عن اللغة الراقية؛ مما أدى إلى ما أطلق عليه: شيزوفرينيا لغوية، والميل إلى المبالغة، والذى يعد أحد جوانب الاهتمام بالمظهر على حساب الجوهر، وما إلى ذلك؟ وهو ما دفعه إلى إلغاء بعض القواعد مثل إلغاء المثنى وجمع المؤنث وحذف عدد كبير من المفردات التى ليس لها أى أهمية فى اللغة العربية.

منذ صدور هذا الكتاب تباينت ردود الأفعال ما بين مؤيد جزئيًّا اتفق معه فى شىء واختلف معه فى شىء آخر، مثلما فعل الأستاذ/ فاروق شوشة فى إعادة النظر إلى اللغة

العربية، لكنه اختلف فى طريقته مع الشوباشى.

ووصل البعض إلى اتهامه بالجهل، وما إلى ذلك، وكما هو متوقع طالب أحدهم بمصادرة هذا الكتاب.. دعونا نناقش هذا الكتاب.

أ/ شريف:

للأسف أن الكثير لم يفهم هذا العنوان، لدرجة أن أحد الدكاترة فى إحدى الصحف اليومية قال: إنه يوجد خطأ نحوى فى العنوان، وقال إن الصواب: تحيا اللغة العربية وليسقط سيبويه، وللأسف الشديد لم يفهم شيئًا، وعنوانى معناه: لكى تحيا اللغة العربية؛ يسقط سيبويه، معنى هذا الكلام: أننى اكتشفت أن اللهجات موجودة منذ فجر تاريخ اللغة العربية وسط منظومة لغوية، قبل نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ.

اللهجات بدأت تأخذ أهمية كبيرة جداً؛ لأسباب متعددة، لكن الأسباب الأساسية أنه فى الماضى كانت الكتابة هى أساس التدوين والتسجيل. وطالما أن اللغة

العربية الفصحى مكتوبة ، فقد كانت محفوظة .. مفيش خطر عليها.

اليوم مع التليفزيون ومع الإذاعة، أصبح هناك خطورة وغزو من اللهجات، وهذا ما حذرت منه؛ لأنه إذا طغت اللهجات وبدأت تسيطر - خاصة أن بعض المعاهد اللغوية سيطرت عليها اللهجات، ونسينا اللغة العربية الفصحى.. أنا فى رأيى هذه كارثة؛ لهذه الأسباب :

أولاً : سننقطع عن تاريخنا وسننقطع عن ديننا وعن تراثنا، وننقطع عن هذا الشعر العظيم والأدب والنثر الجميل: عن المتنبى وامرئ القيس والجاحظ وبديع الزمان الهمذانى، مروراً بطه حسين .. كل دول هننقطع عنهم.

هذا عن الماضى، أما عن الحاضر فإن العالم العربى سيكون كل واحد يتكلم بلغته - وهى مختلفة تماماً - أنا كمصرى مش هفهم الجزائرى، والسورى لن يفهم اليمنى، وهكذا .. وبالتالى يتم تفتيت وتشتيت العالم العربى. فأنا من هذا المنطلق وخاصة لما شفت فى مطبوعة الألمناك وهى

وهى مطبوعة مهمة جداً، مش مجرد مطبوعة، هذه المطبوعة كانت ولا زالت تضع إحصائيات مهمة جداً، منها إحصائيات اللغات، وهنقول مثلاً: أهم اللغات هى لغة المندارين، وهى إحدى لغات الصين.. الصين فيها كذا لغة أهمها المندارين، يتحدث بها حوالى ٨٠٠ مليون إنسان، تليها اللغة الهندية ويتحدث بها حوالى ٦٠٠ مليون أملهم أنهم كانوا يضعون تصنيفاً لأهم اللغات.

كان العربى له دايماً مكانته، أعتقد أنه له المرتبة الخامسة، ويتفق معى الدكتور محمد، وفى سنة ٢٠٠١ فتحت هذه المطبوعة - وهى بصراحة مطبوعة هامة - رغم إنى بقول إنها بالتأكيد مطبوعة مغرضة.

المذيعة: لكنها مرجع مهم.

أ/ شريف:

لكنها مرجع مهم، لم أجد اللغة العربية، وجدتهم عاملين إيه بقى؟ أهم لغات العالم حوالى ٢١٠ منهم اللغة

المصرية ٦٥ مليون، اللغة السورية ١٨مليون، اللغة التونسية .. إذن هناك اتجاه إلى النيل من اللغة العربية الفصحى، ونحاول أن توجد لغة وسط.

المذيعة: هل معنى كده إن حضرتك بتحاول التقريب.

أ/ شريف:

حضرتك سألتيني: ليه كتبت الكتاب؟ الهدف من هذا الكتاب هو الحفاظ على اللغة العربية، وأعتقد أن الحفاظ على اللغة العربية يستلزم تطويرها تطويراً سريعًا وحاسماً، وبدون هذا ستواجه اللغة العربية خطراً داهماً.. مش ضروري بعد سنتين بعد ١٠٠ سنة بعد ١٥٠سنة.

المذيعة:

اسمح لي يا أستاذ شريف أتوجه بالسؤال للدكتور عبد الصبور شاهين قبل أن ندخل إلى تفاصيل ما يطرقه الأستاذ الشوباشي في كتابه.. لماذا دائماً أي دعوة لها علاقة باللغة العربية تبدو وكأنها مناطق محظور السير فيها؟

يعنى مثلاً الضجة التى ثارت على الدكتور طه حسين حول كتاب «الشعر الجاهلى» وغير ذلك من الكتب، هل لأن القرآن نص مقدس كتب باللغة العربية؟ هل يعنى ذلك أن اللغة العربية لغة مقدسة، وهى لغة كما نزلت من السماء علينا أن نحافظ عليها؟

د. عبد الصبور شاهين:

وأنا أريد ابتداءً أن أشكر الأستاذ شريف، وإن كان لى ملاحظات سوف تأتى فى السياق، لكنى أريد أن أستدرك على ما قاله الآن:

ملاحظة أن اللغة لم تكن من قبل مكتوبة ثم أصبحت مكتوبة، ثم منطوقة.. وإنما كانت دائمًا منطوقة وبقيت منطوقة تقريبًا إلى ثلاثمائة سنة فى الإسلام، كان الذين يروون حديث رسول الله ﷺ يُسمون بالحفَّاظ، وإذا كتب واحد منه حديثًا رفضوا حديثه وروايته، يعنى ذلك أنه كان حافظًا، والكتابة يمكن أن يكون فيها خطأ، لكن

الحافظ لا يمكن أن يخطئ، ثم لجأوا إلى الكتابة بعد ذلك وكتبوا ما حفظوه.

المذيعة:

إذن تختلف مع فكرة أساسية طرحها فى كتابه الأستاذ الشوباشى، وهى أن اللغة العربية كانت لغة متكاملة، أم كان فى اللغة اللحن والخطأ؟

د. عبد الصبور شاهين:

لغة منطوقة، ولم يكن العرب يعرفون الكتابة، يعنى عندما جاء الإسلام كان الذين يعرفون الكتابة ٨ بس.

الشوباشى: أعتقد ١٧.

د. عبد الصبور شاهين:

لا، أنا عدّيتهم فى كتابى «تاريخ القرآن» كانوا ٨، ثم طوروها، ثم الرسول استكتب الأسرى ليعلموا الأطفال وعلموا مجموعة من أطفال الأنصار، وبذلك شاعت

الكتابة، لكنهم حافظوا على أهمية الحفظ وأهمية الاستبقاء فى الذاكرة واستخدامها، وبذلك كانوا يجتهدون.. من يكتب الحديث كان مدلّسًا. يعنى إيه مدلس؟ يعني: خايف ينسى فيكتب الحديث، ربما كتبه عن نسيان، وبذلك يكون قد دلّس، هذا أولاً. وثانيًا فيما يتعلق باللغة العربية وأنها مقدسة أو غير مقدسة، أولاً: لا يوجد لغة مقدسة إلا فى حسابات الكهنة والمؤسسات الكهنوتية، لكن اللغة نشاط إنسانى بقى على ألسنة الناس أو تاهت فى متاهات الزمان، أهم شيء أنها من صناعة وتطوير الإنسان، أما القرآن ولغة القرآن فهى المقدسة، معنى مقدس أنه مطهر، فلغة القرآن مقدسة لأنها كلام الله، ولا نستطيع أن نغير فيها حرفًا، والله وعد بحفظها فقال: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ الحجر/٩.

المذيعة:

إذن حضرتك هتفض لنا هذا الاشتباك بين قداسة اللغة أو عدم قداسة اللغة كلغة فى حد ذاتها أو كلغة نص

مقدس، لكن بعد أن نتلقى هذا الاتصال.

الاتصال:

السلام عليكم جابر قميحة، جامعة عين شمس، والله أريد أن أقول كلمة. الأستاذ الكبير يقول: أنه كتب هذا الكتاب للحفاظ على اللغة العربية، وفى الواقع بالنظر فى هذه الورقات يحاول أن يهدم اللغة العربية تماماً، لأن أبسط شيء يمكن أن أقوله إن من يشرع أو يجتهد فى اللغة العربية يجب أن يتقن اللغة العربية، ولكنى قرأت الكتاب مرتين واكتشفت عشرات الأخطاء التى لا يقع فيها الطلاب.

أ. شريف:

لو افترضنا أن هناك أخطاء لى فهذه حجة لى وليس عليّ، ليه ؟ لأنى أدرس اللغة العربية وبدأت أدرس اللغة العربية من ٥٠ سنة فى المدرسة، وأمارسها من ٥٠ عاماً، قرأت أمهات الكتب، قرأت مقدمة ابن خلدون، قرأت

أجزاءً كثيرة من الأغاني للأصفهاني، وتاريخ الرسل والملوك للطبري، وبعد كل هذا العمر وكل هذه التجربة أخطئ في اللغة العربية، إما إن أنا عندي إعاقة ذهنية، أو أن هذه اللغة من الصعوبة بحيث أنه لا يمكن لإنسان أن يكون متمكنًا منها ولا يخطئ فيها إلا بعد ٥٠٠ سنة من الممارسة.

المذيعة:

هذا ما أشرت إليه أكثر من مرة في كتابك وهو صعوبة اللغة العربية.

اسمحوا لي أن أسمع رد الدكتور محمد داود.

د. محمد داود:

بداية من حق أي إنسان لغوي أو غير لغوي أن يكون لديه نوع من الغيرة، وهذا شيء يشكر للأستاذ شريف، وما دمنا نفكر فإن فكرنا ليس قرآنًا، بل هو لون من الحوار، وأنا أريد أن أنطلق في مناقشتي من منطلق علمي وليس من منطلق ديني؛ لأن اللغة تحولت إلى علم، وهذا العلم نشأ

فى أحضان الغرب: علم اللغويات (Linguistics) وأصبح له إنجازات على مستوى علم اللغة، قالها نعوم تشومسكى، قالها جون ليونز، قالها دى سوسير، هنالك إنجازات علمية بمعنى أنها تخضع للتجربة والمشاهدة والحقائق، هل يمكن يا أستاذ شريف أن نضحى بإنجازات علم اللغة على مستوى العالم؟ هل توافق على ذلك؟ هل توافق على أنك تعترض على جهد علمى رائع أنجزه علم اللغة؟ هل يليق بإنسان أن يكون بهذا الفكر ويظن أنه إصلاحى؟ مع هدم (مداخلة من المذيعة اسمح لى أن أحدد النقاش، أول قاعدة هل اللغة العربية بهذه الصعوبة لكى يتحدث عليها بصورة هذه) أنا أجيب بأسلوبى وليس بأسلوبك، ويجب أن يكون لدينا حرية فى الحوار، وأقول نحن لدينا إنجازات فى علم اللغة وهذه الإنجازات لا يمكن أن نضحى بها.

ومن أكبر المسائل التى وقع فيها الأستاذ الشوباشى وأدت إلى تخبطه أنه لم يستطع أن يفرق بين اللغة ومستخدم اللغة. بمعنى أن اللغة تابعة لمستخدم اللغة، وهذا ما أقره علم اللغة فى كل الكتب الأجنبية والعربية

ومستخدم اللغة. بمعنى أن اللغة تابعة لمستخدم اللغة، وهذا ما أقره علم اللغة فى كل الكتب الأجنبية والعربية والمدارس اللغوية القائمة، فقوة اللغة تكون من قوة أهليها، لقد قال أ/شريف فى هذا الجزء أن اللغة تعوق العقل العربى والتفكير العربى بسبب الصعوبة، دعوى الصعوبة ليست من اللغة كما يقرر علم اللغة، ولكن دعوى الصعوبة تأتى من أهل اللغة، ولا تأتى من اللغة نفسها بمعنى أن الإنسان عندما يستخدم اللغة ويمارسها تصبح اللغة طيعة، وحين لا نمارس اللغة ونأخذ هذه اللغة عن طريق حفظ القواعد تصبح هذه اللغة صعبة، فالجهد الموجود فى اللغة الإنجليزية جهد لتيسير وتعليم الإنجليزية، واستعمالها فى الوظائف والاتصال والإعلام وشبكة الإنترنيت. ليس هناك جهد مواز فى تيسير العربية، بل هناك تقصير من أهل العربية، والعيب ليس فى اللغة، ولكن العيب فىّ وفى الأستاذ شريف وفينا جميعًا

(الدكتور عبد الصبور: وفىّ أنا أيضًا).

إننا لم ننهض لتيسير وتعليم اللغة العربية كي تكون ميسرة وأنا أختم هذه النقطة (دعوى الصعوبة) بشيء مهم وهو دعوة للتأمل والتدبر في السؤال: لماذا العامية سهلة وميسورة على ألسنتنا، لا نخطئ فيها على الرغم من أنه لا تدرس قواعد العامية في المدارس وليس لها نظم مقننة كما في الفصحى، بل بها تشتت خطير جدًّا، هناك عامية للسواحلية، وأخرى قاهرية وأخرى نوبية.. .إلخ.

وعلى المستوى العربي تتشتت لدرجة أكثر، وعلى الرغم من كل هذا نحن مهرة في الحديث بالعامية. أما الفصحى فهي فرس حرون على كثيرمن الناس أسأل لماذا؟

والإجابة أن العامية تستعمل والفصحى تستبعد عن الاستعمال، هذا ما قرره اللغويون، فالصعوبة موجودة، لكن مرجعها ليس لعَيْبٍ في الفصحى، ولكن مرجعها لمستخدم اللغة، وليس هذا كلام محمد داود ولا كلام العرب وحدهم، ولكن كلام علماء اللغة في المدارس اللغوية المختلفة على مستوى العالم، وأمامنا دراسة لغوية

للعربية فى واقعها المعاصر بالإنجليزية صدرت من إنسان غير عربى : (Modern Arabic Language) .

المذيعة :

نأخذ من حضرتك هذه الفكرة أن المشكلة ليست فى اللغة، ولكن المشكلة فينا، ولم يحاول أحد تطويرها أو تحديثها ، لكن الحجر العاثر الذى يقف أحيانًا يا دكتور عبد الصبور شاهين فى محاولة هذه الفكرة إن أخطأ أصحابها أم أصابوا، إن مجرد مناقشة الفكرة فى بعض المرات تأتى اتهامات مُسلَّطة على رؤوس أصحابها، إن جاز هذا التعبير، وقالوا مثلاً : أن نكتب اللغة العربية بحروف لاتينية، أو أن الأستاذ شريف قال : نلغى المثنى ونوحد أحكام العدد، المهم لماذا التشكيك فى النوايا والاتهامات بالتآمر؟

د . عبد الصبور شاهين :

يجب أن نعترف بأن أمتنا العربية الإسلامية مستهدفة

من أعدائها، ولا توجد أمة إلا ولها أعداء، ولذلك رتب أعداؤنا صفوفهم وأفكارهم على محاولة إضعاف علاقة العرب والمسلمين باللغة العربية؛ لأنها حصن يتضرعون به، ويتمسكون به ويربطهم بالقرآن، ولذلك وجدنا اللغة العربية مستهدفة فى كل مراحل التاريخ، وفى القرن العشرين كان الاستعمار البريطانى يحارب اللغة العربية، واستطاع أن يخلق مجموعة من الصفوة يرفضون اللغة العربية، مع أن هناك مجموعات أخرى يحبون اللغة العربية، ومجموعات أخرى يحاربون اللغة العربية وهم الذين يحولون بين العربية وبين دراسات العلوم، فأصبحنا لا ندرس العلوم باللغة العربية، مع استطاعة اللغة العربية، ومع ذلك لا ندرس العلوم باللغة العربية تحت زعم أن اللغة العربية لغة ليست لغة حضارية، ولا تتسع لمطالب الحضارة، وزرعوا عند الصفوة عندنا هذا الاعتقاد، رغم أن اللغة العربية لا ينقصها شيء لتصبح معبرة عن كل فروع العلم.

المذيعة: لكن نحتاج لنوع من التطوير.

مكالمة د. علي:

إن تطور اللغة مرتبط بتطور الشعب الذى يتحدث هذه اللغة، وعندما كان المسلمون هم الأمة الأولى فى العالم فى القرن السابع الهجرى كانت اللغة العربية هى لغة الحضارة والحديث فى العالم كله، وكان أغلب العلماء الأوربيين يتكلمون اللغة العربية، أما الآن فهم فى فترة تخلف فلا بد أن تنهض الأمة العربية لكى تنهض اللغة العربية، ومهما حذفنا واو الجمع أو تاء التأنيث أو نون النسوة أو حذفنا النحو كله، كل هذا لن يحدث تطوراً؛ لأن الشعب كله فى مرحلة تخلف، وإذا لم ننهض سوف تندثر الأمة العربية، وتندثر لغتها أيضاً كما اندثر الهنود الحمر، وكثير من الشعوب التى نسيها التاريخ، لابد من نهوض الأمة العربية حتى يتم النهوض بلغتها.

د. عبد الصبور :

إن تدريس اللغة العربية على مستوى العلم هو مطلب أساسي، ولا يمكن أن نتنازل عنه، أما العربية لغة كاملة، يمكن أن تدرس بهـا العلوم. أنا كنت مرة فى اسطنبول كنت واقف مع أستاذة الكيمياء، فقلت لها تدرسون العلوم بأية لغة ؟ فقالت لى : باللغة التركية، فقلت لها : وهل اللغة التركية قادرة على استيعاب العلوم؟ فقالت لى : هذه كرامتنا القومية !!

لا يستطيعون أن يتنازلوا عن تدريس العلوم باللغة التركية، رغم أنها أقل من العربية فى تدريس العلوم، إذن فالمشكلة فى إيمان الصفوة الذين يستخدمون اللغة بلغتهم وضرورة ممارسة هذه اللغة عند كل متحدث بها أو دارس بها ولها، عندنا مجمع للغة العربية من سنة ٣٥ تقريباً أخرج رصيداً من الاصطلاحات، لكنه كمن يعبئ تراباً فى شوالات، لا تستخدم هذه الاصطلاحات، ولا يحاول أحد الاستفادة منها، وإنما هى كأنها مؤسسة للوقف ليست

للوقف ليست مؤسسة فعلاً لها إيجابية، ليس لها أى دور في المجتمع، وإنما هي تذكارية كأنها كأى ديكور في المجتمع.

المذيعــــة: لكنك تتفق مع الأستاذ الشوباشي بأن اللغة العربية تعاني من مشاكل عديدة.

د. عبد الصبور شاهين:

مشاكل استعمالية وليست قواعدية، يعنى مثلاً الأستاذ شريف يقول: نحذف نون النسوة، ونلغى المثنى، يعنى إيه نلغى المثنى؟

مرة كنت أقدم برنامج في التليفزيون: ندوة العلماء، وبعدين جاءني أستاذ في أمراض النساء، فسألته عن اللغة العربية وعن كيفية الدراسة بها، قال: هي أدق من اللغة الإنجليزية في التعبير، وأضرب مثلاً على ذلك بأن اللغة العربية تستخدم المثنى الذى لا تستخدمه اللغات الأخرى والمثنى اعتبار في العدد، لما آجى مثلاً أشوف اللغة الفرنسية

تستخدم هن وهم، هل جاء من يريد أن يلغى هن فى اللغة الفرنسية، إنما تبقى هن كما تبقى هم.

أ/ شريف:

الدكتور محمد طرح موضوع مهم جداً هو اللغة العلمية. اللغة الفصحى لغة القرآن، ونحن شعب مؤمن، واللغة العربية كانت لغة العلم التى أفرزت علوماً جديدة مثل: اللوغاريتمات مثل الجبر، وإنما كانوا فى أوربا مضطرين إلى تعلم اللغة العربية لكى يتوصلوا إلى آخر ما وصلت إليه العقلية العربية، والآن، لماذا هجرنا اللغة العربية؟ ولكن العامة يتساءلون: لماذا تركنا اللغة العربية الفصحى واتجهنا للهجات؟ لماذا؟ أما عن الكتاب فأنا لا أدَّعى أنى أملك الحقيقة، وأنى أقول أن المثنى يتلغى، يبقى يتلغى، ولكن أقول من اجتهد وأصاب فله أجران، أنا أعتقد أن لى أجران، لأن المثنى لا يوجد فى أى لغة فى العالم، وعندما ظهرت اللغة العربية وبدأ الشعراء مثل عنتر وبدءوا يبدعون، لكن كانت هناك لغات أخرى مثل العبرية

الفارسية كلها أو معظمها، كان بها مثنى وهذه اللغة إما أن تتطور أو تختفى وحذفت المثنى.

المذيعة:

أستاذ شريف إذا أُلغى المثنى كيف يمكن التواصل مع القرآن الكريم، واللغة العربية بعد حذف المثنى.

أ/ شريف:

أولاً هل نفهمه أصلاً بهذا التصوير، أما نفهمه أصلاً إذا سيطرت اللهجات، وأنا أقول بوضوح فى هذا الكتاب أن شرط التطوير هو أن نظل متواصلين مع تراثنا القرآن الكريم سبع نساء، وسبع رجال الأرقام كلها أحادية (د. محمد داود كلام غير علمى كلام غير منهجى) للأسف أكبر خطر على اللغة من يطالبون بتجميد اللغة، وعدم تطويرها ويتقوقعون.

المذيعة:

المنطق يقول والحياة تقول إننا نتحدث اللغة على مدار

١٥٠٠ سنة كما هي، إن في مطبوعاتنا وفي كتاباتنا كما هي، أنت لم تكتب هذا الكتاب مثلاً بنفس طريقة ابن المقفع مثلاً.

أ/ **شريف**: النحو لم يتغير.

د. عبد الصبور شاهين:

الخطأ الذى نقع فيه إن وافقنا الأستاذ شريف، وهو أنه يعتبر أن القرآن الكريم كتاب عمره ١٥٠٠ سنة، القرآن كتاب يتنزل الآن على المسلمين، كما يتنزل على كل أجيال المسلمين، ولا يمكن أن يتقادم (مقاطعة الأستاذ شريف: وهذا رأى) فالقرآن هو ضابط للغة وقواعدها ولاستعمالاتها، ولا نستطيع أن ننفلت، أنا عملت تجربة يا أستاذ شريف على لغة طه حسين، وطه حسين راجل مودرن وجه من باريس، وجبتله بحث كتبه في باكورة حياته، وأحصيت الكلمات التى وردت جذورها فى القرآن، قمت بنفس التجربة على لغة العقاد، وقمت بنفس التجربة على

التجربة على عدو القرآن سلامة موسى الذى كان يحارب القرآن، إذا بى أجد أنه لم يجد فى قاموس اللغة كلمات يحارب بها القرآن إلا بكلمات القرآن، ليس عنده إلا كلمة أو كلمتان خارج المعجم القرآنى؛ إذن القرآن مهيمن على اللغة الفصحى أيًّا كان المتحدث بها، ولا يمكن أن نغامر بالتغيير فى اللغة العربية إلا بقطع الصلة بيننا وبين القرآن الكريم، أنا عندما أقول: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾، (اقتتلوا) باعتبار أن المؤمنين جماعة، (بينهما) باعتبار أنهما طائفتان، هذه الدقة فى استخدام المثنى لا يمكن الاستغناء عنها فى لغتنا العربية، بل على العكس يجب أن نستخدم كل القيود، وكل ما يتصور، انت عارف زمان كان بعض النساء ممن يطالبن بحقوق المرأة والمساواة مع الرجل كن يطالبن بإلغاء نون النسوة، والمطالبة بواو الجماعة، ولكن القانون اللغوى سَخِرَ منهن وبقيت نون النسوة كما هى.

المذيعة :

إذن حضرتك تتفق مع الدكتور شريف فى فكرة أن القرآن الكريم هو ضابط اللغة، ولكنك تختلف معه بشدة فى فكرة المثنى، وبعض الأحكام التى يريد إلغاءها، فهذا سيقطع الصلة بيننا وبين المتحدثين فى هذه اللغة، وبين القرآن كنص مقدس.

د. عبد الصبور شاهين :

إن ما يضعف اللغة العربية الآن هو أن المؤامرة مستمرة، وأننا أصبحنا الآن الطفل فى مدارس التمهيدى نعلمه اللغة الإنجليزية، إنها مؤامرة يرتكبها رجال التربية، ويرتكبها المشرفون على مدارس اللغات، وهى كارثة حقيقية، يجب أن يلتفت إليها المشرفون على التربية من رجال المجتمع.

المذيعة : إذن تنقل المعركة إلى مكان آخر.

د. عبد الصبور شاهين :

د. عبد الصبور شاهين:

مؤسسات التربية فى مصر متهمة بمحاربة العربية ومحاربة الإسلام.

مداخلة تليفونية:

أستاذ شريف إذا أراد الاجتهاد فليبتعد عن المثنى وما شابه ذلك.

د. محمد داود:

لى نقطتان هما: ادعاء أ/شريف أنه لا يوجد أحد يتحدث الفصحى فى حياته الطبيعية، مغالطة أو عدم وعى من الأستاذ شريف بالواقع اللغوى، وينبغى أن نعلم ونفهم أن لكل عصر فصحاه، وله عاميته، والعامية لها منطقتها والفصحى لها منطقتها حتى فى العصر الجاهلى، وهذا يعنى أنى أتحدث الفصحى فى مساحتها مثل أن ألقى محاضرة أو أن أكتب مقالة فى الجريدة أو ألقى خطبة، أو أنشد نشيداً، هذه هى مجالات الفصحى، لكن حينما

يجلس إنسان على القهوة ويقول: قهوة يا عسل، ميت فل وعشرة، لا نطالبه بالفصحي، فهذه منطقة العامية، لا تستخدم فيها الفصحي، العامية لها مساحتها، والفصحى لها مساحتها، لكن الذى نرفضه أن تحتل العامية مساحة الفصحى، وأنا لى خمس دراسات عن التطور الكائن فى اللغة العربية، منها: دراستان تحت إشراف أستاذى د.عبد الصبور شاهين، وعملى فى الدراسات المعاصرة، وأنشأت معجمين فى العربية المعاصرة، فما بالك بجهود المجامع والعلماء الأفذاذ أمثال المرحوم أستاذنا د.أحمد مختار عمر؟ فالتطوير جارٍ، لكن بقواعد العربية وأُسسها، ثم أنا أعترض جداً على التطاول على رمز العربية وهو سيبويه، لأن هذا الرمز له قيمته، وأفاد العربية، وحتى مَنْ كتب الكتاب فهو لم يخرج عن عباءة سيبويه، فقد كتب كلامه بقواعد سيبويه، وسيبويه رمز من رموز العربية، ونحن لن نتنازل عن عطاء هذا الرمز أمام الاتجاهات غير العلمية.

مداخلات ساخنة:

مداخلات ساخنة:

بل لاهبة بين د. داود وبين أ. شريف تداخلت الأصوات فلم يتضح منها شيء.

د. عبد الصبور شاهين:

نحن يا أستاذ شريف لسنا ضدك ولكن نحن معك لتقويم المنهج الفكرى لعملك، نحن سعداء بفكرة الإصلاح، ونريد المنهج الفكرى، ولكننا ضد الهدم.

أ. شريف:

لو كنت مع الهدم لكنت طالبت كما طالب سلامة موسى باللجوء إلى العامية.

د. عبد الصبور شاهين:

طالب باللجوء إلى العامية بكتاب باللغة العربية الفصحى.

المذيعة :

أ/ شريف حضرتك زاوجت بين اللغة العربية كلغة تفكير وما بين أخطاء فى الفكر العربى زى إن اللغة العربية تميل بطبعها إلى المبالغة، وهو ما انسحب على الفكرة العربية، وأن اللغة العربية تميل إلى الكلام وليس الفعل، وأنها تميل إلى المنظر لا إلى الجوهر.

أ. شريف :

طبعًا من السذاجة أن اللغة العربية تؤدى ذلك، ولم اقل ذلك ولكن أقول إنها وعاء الفكر، وهى غطاء الفكر، ولكنها أيضًا تؤثر عندما نُعَلِّم طفلاً اللغة الصينية أو اللغة البرتغالية أو اللغة العربية، أعتقد أنها مختلفة، وأعتقد أن الأساتذة متفقين، وهذا سبب مناداتى بالتطوير، إنما لا يمكن أن نرى العالم كما كان يراه امرؤ القيس، الآن، كل شيء فى الدنيا تغير، أحلامنا، طموحاتنا، ومشكلاتنا، كل شيء تغير، ولازم نطور اللغة، ومن الممكن أن أكون قد أخطأت، لكنى أطالب بتطوير اللغة العربية، أنا أقول المثنى

المثنى لا وجـود له، ولكنه مـوجـود فى الماضى، كـذلك أحكام العـدد كل هذه من سـمـات اللغات القـديمة، وأنا أملى أن تكون لغتنا الجميلة تستمر وتعود إلى ما كانت عليه كمنارة من منارات الفكر، منارة من منارات المعرفة.

د. عبد الصبور شاهين:

هى دعوة عامة للنظر إلى اللغة العربية، وربما يخدم هذا وجود اللغة العربيـة فى المجتمع، القصور الحاد فى مناهج التـربيـة عندنا يلفت النظر، يجب أن يعلو شأن لغتنا العربيـة، ابتداءً من الأطفال إلى الكبار، وسمها شيزوفرينيا لهجات، إن الإنجليزية والفرنسية بها لهجات وفصحى.

د. محمد داود:

انطلاقة مهمة جداً يجب أن يعيها أ/ شريف وهى أن لكل لغة نظامها، وسبب التخبط فى كتابه أنه لم يعتمد خصوصية اللغة العربية فى نظامها، وهذا ما اعتبره أهل العلم، ومنهم مـؤلف كـتـاب (Modern Arabic Lan-

guage). وهذا كتاب ألف باللغة الإنجليزية عن العربية، وكان يتكلم عن خصوصية العربية، وأن لكل لغة نظامها في الحديث في الكتابة في كل المستويات.

مرحبًا بالتطوير. ولكن بشرط أن يقوم به أهل العلم، فتطوير الطب يقوم به أهل الطب كل في تخصصه، ومن المهم أن نفرق بين الفصحى والعامية في المساحات المختلفة، وليس مشكلةً أن يوجد في آن واحد فصحى وعامية، ولكن أن تطغى العامية على الفصحى هو المرفوض، كما أن اللغة استعمال، والعيب في مستخدم اللغة لا في اللغة نفسها، وأنا أريد أن أضرب مثلاً لمسألة العامية والفصحى لتبسيط المسألة وتيسيرها للفهم، أ.شريف جاء هنا للبرنامج بهذه الملابس الرسمية الأنيقة، وإذا ذهب إلى بيته وأراد الراحة (بالبيجامة مثلاً). وهو لا يستطيع أن ينام بهذه البدلة الأنيقة، اللهم إلا في ظروف استثنائية، وأيضًا

استثنائية، وأيضًا هو لا يستطيع أن يأتى إلى أعماله الرسمية بالبيجامة، فكل منهما (البدلة والبيچامة) يؤدى دوراً وله مكانه، وهكذا الفصحى والعامية.

أ. شريف :

أنا سعيد أن أثار كتابى هذه الضجة، وهذا معناه أنه هناك مشكلة ونحن نتفق على شىء، وهو أننا عشاق للغة العربية، وإن كان هناك للأسف من يتخذ حجج غير عقلانية أو عشوائية.

د. محمد داود :

حججًا علمية لكنك لا ترى إلا رأيك.

المذيعة : تختم بالشكر لأطراف الحوار.

مع توديع المشاهدين على أمل اللقاء فى مناقشة قضية جديدة.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/١٤٧٩٠